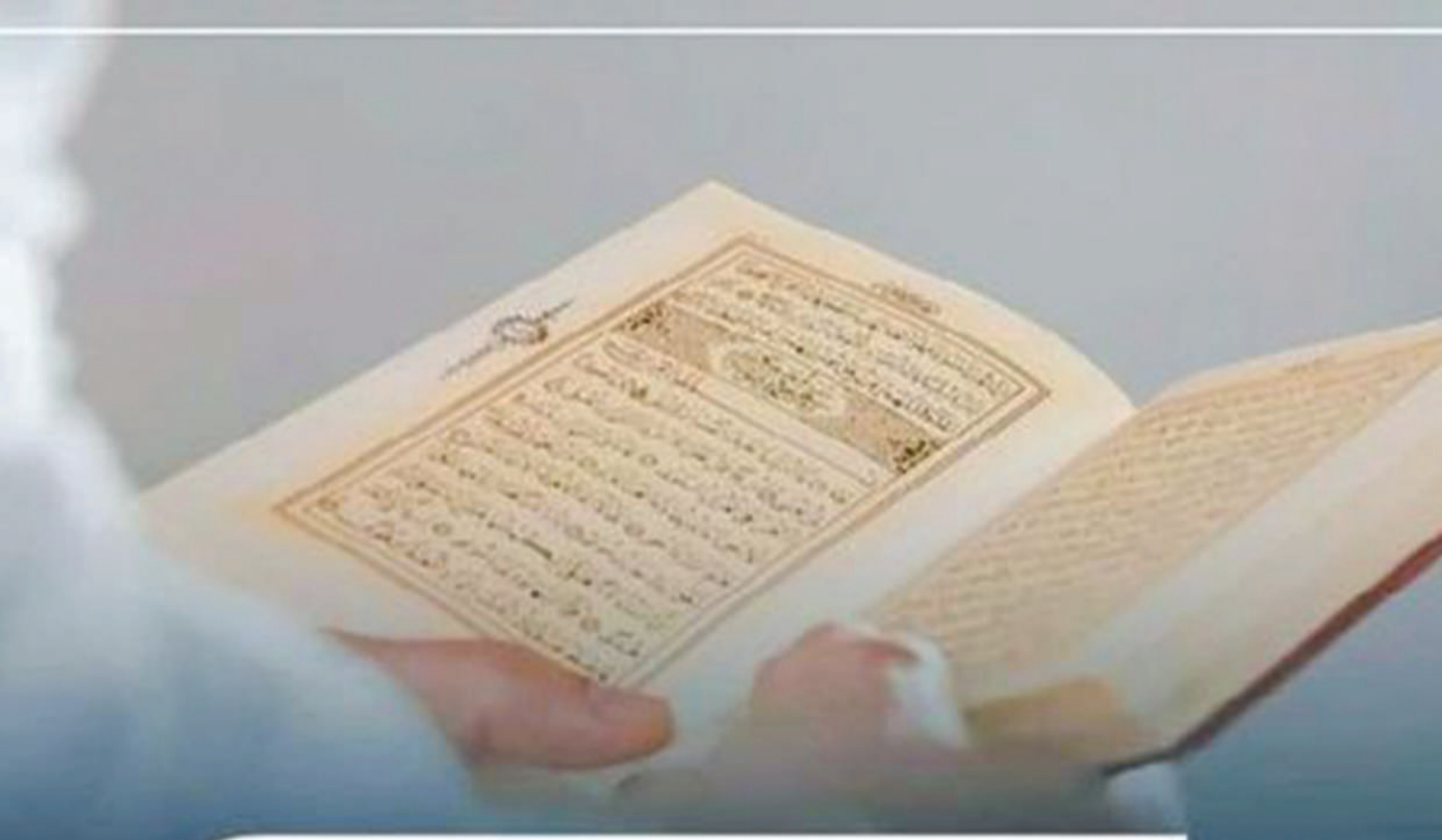

في شخصية النبي محمد ﷺ

فلسفة الرحمة

د. مصطفى عطية جمعة

فلسفة الرحمة

في شخصية النبي محمد"ﷺ"

د. مصطفى عطية جمعة

الكتاب: فلسفة الرحمة.. في شخصية النبي مُحَمَّد"ﷺ"

الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة

الطبعة: ٢٠٢٤

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جمعة، مصطفى عطية

فلسفة الرحمة.. في شخصية النبي مُحَمَّد"ﷺ"/ د. مصطفى عطية جمعة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٧٣٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٥٩٧٤ / ٢٠٢٣

فلسفة الرحمة

في شخصية النبي محمد"ﷺ"

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى والديّ

قال تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾

مقدمة

في زمن، يكثر فيه الكلام عن حقوق الإنسان، والرحمة بالبشر في المواثيق والأدبيات السياسية، ويتباهى الغرب ومختلف المنظمات الإنسانية الدولية باستحداث أجيال جديدة من مواثيق حقوق الطفل والمرأة والشيخ..؛ تشتد الهجمة على الإسلام وشريعته؛ بأنه دين قاسٍ، لا يعرف الرحمة البشرية ولا فلسفتها، وأن شريعته تتلاءم مع مجتمع الصحراء الذي خرج منه، وأنه لابد من استحداث قوانين جديدة في البلاد الإسلامية، تستفيد من القوانين الغربية المعاصرة. وزاد الطين بلة ما يسمى بقضية الرسوم المسيئة للنبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) التي قامت بها فئة خبيثة من رسامي الكاريكاتير في الدنمارك وفرنسا، مع حرق نسخ من المصحف الشريف، وتصاعدت الأحداث وردود أفعالها في مجتمعينِ: مجتمع غربي يرى أن هذا من قبيل حرية الرأي والتعبير، وأنه لا قيود على الفنون، ولا إرهاب فكريًا يمارس ضده، ومجتمع إسلامي غاضب، ثائر لإهانة نبيه والحط من مكانته العظيمة، وبين هذا وذاك، ضاعت حقيقة شخصية النبي (ﷺ) وأنه نموذج في الخلق الرحيم، وفي التسامح البشري، وأنه يستطيع أن يعالج مشكلات عالمنا المعاصر في خلال دقائق معدودة، كما قال عنه الأديب الروسي الكبير"ليو تولستوي"؛ وحقيقة أن رسامي الكاريكاتير في الغرب، ما فعلوا ذلك إلا لجهلهم بعظمة الرسول وكمال أخلاقه؛ وللصورة المشوهة المترسخة في وعي الغرب عن الإسلام، نتيجة إرث طويل من العداء التاريخي يضيق المجال عن شرح أسبابه. ولو استبعدنا عنصر التعمد الشخصي من هؤلاء الرسامين ومن غيرهم، وافترضنا الجهل المذموم بشخصية مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم)، لكان علينا واجب كبير في نشر الصورة المشرقة لديننا، وتقديم المعلومات والحقائق عن نبينا. أما لو افترضنا سوء النية من قبل هؤلاء، وكل من تطاولَ بالهجوم الشرس ضد الإسلام والنبي (ﷺ)، وعددناهم جزءًا من مسلسل

التآمر القديم الجديد ضد الإسلام وعقيدته وشريعته، فإن حالة العداء ستستمر، هم يهاجمون ويتطاولون، ونحن نستنكر وندافع، وتبقى القضية الأولى على المحك: ماذا فعلنا نحو نبينا؟ هل قمنا بواجبنا على الوجه الأكمل نحو التعريف به، والإعلام عن خلقه العظيم؟ إن هذا الواجب ليس ترفًا فكريًا، بل هو أولوية لا مناص منها، وإلا سنظل أسرى حدودنا، نتكلم ونسمع أنفسنا، وهم يصرخون ويسمعون أنفسهم، ويغيب الحوار الهادئ الرصين، والدعوة السمحة التي هي أساس إسلامنا، وعنوان هدي نبينا (ﷺ).

إزاء ما تقدم، يكون التعريف بجوانب العظمة في شخصية المبعوث رحمة للعالمين الذي أذهل مؤرخي البشرية في الشرق والغرب هدفًا ساميًا؛ لروعة أخلاقه وكمال شخصيته، ولعظمة الرسالة التي حملها، وللآثار العقدية والخلقية التي تركها حيّة في النفوس من خلال مئات الملايين من البشر الذي يؤمنون بالإسلام، ويحبون رسول الإسلام.

وقد جاء هذا الكتاب المتواضع الذي حمل عنوان"فلسفة الرحمة في شخصية النبي(ﷺ)"ساعيًا إلى تركيز الضوء – بعض الشيء– على جانب من جوانب خلق الرسول بعرض جوانب الرحمة بالبشر في تنظيرات النبي (صلى الله عليه وسلم) وسلوكياته وتوجيهاته. ويكاد يقف مجهود الباحث عند استعراض معالم الرحمة بالبشر، وتقديم شرح مبسط لأبعاد توجيهات الرسول، وتعاليمه لأصحابه، وتزخر كتب صحاح السنة بآلاف الصفحات عن هذه الجوانب، ولكنها تحتاج إلى جهود التنقيب، والترتيب، من أجل إجلاء الحقائق الناصعة للمسلمين أولاً ولكل البشر ثانية.

لذا، جاءت خطة البحث مجيبة عن الأسئلة الآتية:

– ما مفهوم الرحمة بالبشر؟ وكيف تناولها فلاسفة العالم؟ وكيف اشتملتها إليها المواثيق الدولية لحقوق الإنسان؟

وقد أجاب الفصل الأول من هذا البحث عن هذين السؤالين، بشكل

إجمالي، وبنظرة أكثر شمولاً وإيجازًا، وخلص إلى حقيقة مفادها أن العقول البشرية قد تضل وتنحرف في رؤيتها لمظاهر الرحمة بالبشر، بينما جاءت مقاصد الشريعة وقوانينها منطلقة من مفاهيم الرحمة الفردية والجماعية والمجتمعية.

– ما مظاهر الرحمة بالبشر في شخصية النبي (ﷺ)؟

وقد أجاب الفصل الثاني عن هذا السؤال، موضحًا أن المقصود بشخصية النبي القول والفعل، الهدي والسلوك، التوجيه والعمل، وقد جاء على مبحثين: الأول: فلسفة الرحمة بالبشر في شخصية النبي. والثاني: الرحمة بأفراد المجتمع في سنة النبي (ﷺ).

– كيف تعامل الرسول (ﷺ) مع غير المسلمين؟ وما هديه في الحرب؟

وقد تناول الفصل الثالث الإجابة عن هذين السؤالين، فالإسلام ليس دينًا منغلقًا، بل منفتحًا، يتحاور مع مختلف الثقافات، ويصهر كافة المجتمعات، بشريعته السمحة، فتناول المبحث الأول: معاملاته (ﷺ) مع غير المسلمين، وتناول المبحث الثاني: الحروب بوصفها جزءا من مقتضيات التجمعات الإنسانية، ضمن نظرية التدافع في الأرض، وإذا كان لابد من الجهاد والدفاع عن المقدسات والنفس والحرمات، فإن لذلك آدابًا عظمى، شملها الإسلام بتوجيهات نبوية عظيمة. وقد جمع الباحث في هذا الفصل بين: غير المسلمين وأحكام الجهاد والحرب، لما رآه من وشائج بينهما في الجانب المنهجي.

وقد جاء منهج البحث ساعيًا إلى تقديم رؤية جديدة لجوانب الرحمة بالبشر في شخصية النبي (ﷺ)، بعدم الاكتفاء بسرد الأحاديث الشريفة والوقائع التاريخية من السيرة، بل محاولة تسليط الضوء على الجوانب التربوية والقيمية التي تحويها، وربطها بالواقع المعاصر – قدر الإمكان –، وربطها كذلك بالقيم التربوية والنفسية، واستعراض آراء من تناولوا شخصية النبي من المسلمين ومن المستشرقين، حسب ما تقتضيه موضوعات البحث، وطرح الأسئلة التي تنطلق من مشكلات البشرية، قديمًا أو حديثًا. وبعبارة أخرى، فإن الباحث سرد

– حسبما تيسر – ما ورد عن الرسول من أقوال وأفعال، وبيان ما ذكر من شروح وتفسيرات ضمن رؤية شاملة، تنطلق من منظور رحب أساسه: إن تعاليم الرسول ليست محدودة بزمان أو مكان أو شخوص، بل تتجه إلى كافة البشر، إنه الرحمة المهداة.

وتتبقى كلمة بخصوص منهج توثيق، فإن الباحث اعتمد التوثيق بذكر عنوان الكتاب ثم مؤلفه، والتفصيلات المكانية والزمانية للنشر. إلا أنه حرص في توثيقه للأحاديث على ذكر: اسم الكتاب (المصدر)، والجزء (إن وجد)، ورقم الصفحة، في كل حديث يذكره، وإن تكررت في سبيل ذلك المصادر في صفحة واحدة، بدلاً من كلمة"المرجع السابق"وما شابهها؛ من أجل المزيد من الإيضاح، وخوفًا من تداخل مصادر الأحاديث واختلاطها لدى القارئ.

وختامًا: ليس الهدف من هذه الدراسة المتواضعة تقديم كل شيء عن مظاهر الرحمة في شخصية النبي، بقدر ما هي إطلالة، أرادها الباحث للمزيد من المعرفة – بالنسبة إليه وإلى كل من يتفضل بالاطلاع على الكتاب – على هدي المصطفى (ﷺ)، فإذا كانت هناك زلات، فهي من لوازم الجهد البشري، ويرجو الله العلي القدير أن يغفرها له، ثم يستسمح القارئ عذرًا فيها، فإن النفس البشرية تظل تخطئ وتصيب وتتعلم، ولكن الشعور المؤكد الذي خرج به الباحث في نهاية الدراسة: تعمّق محبته لشخصية نبينا مُحَمَّد (ﷺ)، الرحمة المهداة والسراج المنير.

والله دوما وأبدا من وراء القصد.

الفصل الأول

الرحمة بالبشر
في الفكر الإنساني والإسلامي

المبحث الأول

الرحمة بالبشر

المفهوم والخُلق والقيمة في الفكر الإنساني

التعريف اللغوي والاصطلاحي لـ مفهوم"الرحمة بالبشر":

توحي لفظة"الرحمة"في جذرها اللغوي بدلالات شاملة في مضمونها لمعاني: رقة القلب والعطف والشفقة[١] والمغفرة[٢]، والخير والنعمة[٣]، ومن معانيها: الرَّحِم: موضع تكوين الجنين ووعاؤه في بطن الأم، ومنه القرابة وأسبابها[٤]، والرحمة صفة كريمة وعاطفة إنسانية نبيلة تبعث على بذل المعروف وإغاثة الملهوف وإعانة المحروم وكف العسف والظلم ومنع التعدي على الضعفاء والمساكين والبغي عليهم [٥]ومن أسماء الله– جل شأنه –: الرحمن والرحيم، وهما

(١) الصحاح في اللغة والعلوم، الجوهري، إعداد: نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ١٩٧٤م، مج ١، ص٤٧٢ ولسان العرب، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، مج١٢، ص٢٣٠.

(٢) لسان العرب، مرجع سابق، ص٢٣٠.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، طبعة ٣، ١٩٨٥م، ج١، ٣٤٧.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م، ج٥، ص١٩٢.

تعنيان أنه – تعالى شأنه – واسع الرحمة، ولا نهاية لرحمته على خلقه[1]وهي صفة من صفات الله، قال تعالى: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[2]، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[3].

ونلاحظ أن لفظة"الرحمة"تحوي في طياتها: معاني قلبية، ومواضع عضوية، ومظاهر سلوكية ونعمات مادية فالمعاني القلبية: تتصل بمشاعر رقة القلب والعطف والشفقة، فالشخص الرحيم لا يفتعل مشاعره، بل هي طبيعة متأصلة في أعماق قلبه، وعندما نصف إنسانًا بالرحمة، فإننا نصف مشاعره تجاه الآخرين، قبل تعاملاته وسلوكياته، أما المواضع العضوية فتطلق على رحم الأم، ومنه يخرج الإخوة والأخوات، حيث يشتركون في التكوين الجسدي من الأبوين، ومن هذا الرحم، تتعمق الأنساب، وتتداخل الصلات، وتتكون العائلات والمصاهرات، وهي في جميعها صلة طيبة، وعندما نستذكر"صلة الرَّحِم"، نستذكر كل ما يتصل بها من محبة الأخوة، وترابط الأقارب، ومشاعر النسب الواحد.

أما المظاهر المادية فتتصل بكون الرحمة مترادفًا للنعمة والخير، مصداقًا لقول الله: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [4] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص١٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية (٥٤)

(٣) سورة الأعراف(١٥٦)

(٤) سورة يونس، الآية (٢١)

النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]

فالرحمة – في الآيتين الكريمتين – تدل على كل الخير الذي يرزق به الإنسان من بعد محنة وكرب، والرزق يشمل الصحة وألوان الطعام وما ينتج عنهما من سعادة وراحة بال.

ومن مترادفات الرحمة أنها جاءت بدلالة المغفرة، قال جل شأنه: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[3]، وجاءت وصفًا للقرآن الكريم، معطوفة على لفظ الهداية، قال المولى تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]، ذكر ابن منظور في معنى الآية: أي فصلناه هاديًا وذا رحمة [5]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[6]فقد سألوا الله الرحمة والهداية والجنات.

وعندما نُلحق لفظة الرحمة إلى لفظة البشر، فإنها – بوصفها مصطلحًا – تأخذ أبعادًا أكثر تحديدًا، فالرحمة بالبشر تخص التعامل مع البشر، بالحسنى والرفق واللين والتسامح والرأفة، في القول والفعل والعطاء والسلوك. فهي قيمة

---

(١) سورة الروم، الآية (٣٦)

(٢) سورة فاطر، الآية (٢)

(٣) سورة البقرة، الآية (١٥٧)

(٤) سورة الأعراف، الآية (٥٢)

(٥) لسان العرب، مج١، ص١١٤٢.

(٦) سورة الكهف، الآية (١٠)

لكونها من ثوابت الأخلاق الإنسانية، بل هي من الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، فالإنسان مخلوق فريد اختصه الله بتكوين مزج فيه الجسم بالروح بالعقل، والرحمة قيمة يدركها العقل بفطرته، دون الحاجة إلى إرشاد من البيئة التي حوله، ولننظر إلى الطفل الذي يولد، إنه يستشعر كلمات الأم ولمساتها ويتجاوب معها منذ اللحظات الأولى له في الحياة، ولا يستجيب عندما تحمله أيد أخرى، ويبكي عندما يتعرض لإهمال أو إعراض. والطفل العصبي أو المشرد أو العدواني أو الشرير، هو ضحية لأسرة قاسية ومجتمع قاس.

إذن، الرحمة بالبشر: شعور بالعطف والرأفة نحو الناس، وقيمة إنسانية شأنها شأن الصدق والعمل والشرف، والقيمة ذات مفهوم وبعد عقليين، وسلوك يعكس الشعور في القلب.

الرحمة بالبشر في المنظور الفلسفي:

يرى بعض الفلاسفة أن الأخلاق نتاج مجتمعي للتقاليد والعادات المترسخة في المجتمعات على مر السنين، وأنها ذات نزعة نسبية، تختلف باختلاف الشخص وفكره وبيئته وظروف تكوينه، وبالتالي فلا توجد قواعد أخلاقية عامة تحكم المنظور الأخلاقي للناس ولا مبادئهم في حياتهم، وإنما توجد قيم توافقَ عليها أبناء المجتمع الواحد [1]، وهذا رأي مردود عليه في كثير من الفلسفات القديمة والمعاصرة، حيث إن الثابت في هذا الأمر أن"الصفات الخلقية تنتمي بطريقة موضوعية وبوصفها مستقلة بذاتها إلى صفات الجنس الإنساني، وإلى نواحي السلوك التي يرتبطون بها، والمؤسسات الاجتماعية والقوانين التي يدينون

(١)انظر: فصول في الفلسفة ومذاهبها، الفيلسوف جود، ترجمة: د. عطية محمود هنا، د. ماهر كامل، سلسلة أمهات الكتب، منشورات مكتبة الأسرة (القراءة للجميع)، مصر، ٢٠٠٣م، ص٨٠ – ٨٤.

لها بالولاء. وإن الكون – الذي نحيا فيه – يحتوي إذن على نظام خلقي بمعنى أن هناك عوامل مستقلة وموضوعية فيه تعد من مقوماته مثل الخير والصواب، والدين جزء أساسي ضمن المنظومة التي تكوّن الأخلاق فينا [1].

لقد قسّم الفلاسفة القيم الروحية إلى ثلاث مجموعات كبرى: القيم الجمالية والخلقية والدينية، ورأوا أن التزام الإنسان بالقيم الدينية ناشئ عن إحساسه بالخوف والرهبة، وفي الوقت ذاته، التسليم بما جاء به الدين، ولكن:"يبدو أن القيم الدينية ليست تابعة للقيم الخلقية أو القيم الجمالية"فقتل الشخص يُعَدُّ جريمة لأنه عمل شرير من وجهة النظر الخلقية، ولكنه من وجهة النظر الدينية شيء آخر؛ إنه خطيئة وذنب [2].

إن الرؤية السابقة للأخلاق تعتمد على انفصال القيم الروحية عن بعضها، وربما يعود هذا الفصل إلى الرؤية الغربية العلمانية اللادينية، ولكن في المنظور الإسلامي، لا يوجد انفصال، فالقتل العمد شرٌ وجريمة، يعاقب عليها التشريع الإسلامي عقوبة تردع كل من يفكر في إزهاق نفس بشكل متعمد. وحتى لو نجا القاتل من العقوبة في الدنيا، فإن انتقام الله في الآخرة أشد.

كما تتداخل القيم الجمالية مع القيم الدينية في المنظور الإسلامي، فكل ما هو جميل محبوب إسلاميًا، لأن الله جميل يحب الجمال، والجمال المقصود هو الجمال الذي لا يخالف الضوابط الشرعية، فلا حديث عن العري الجسدي للمرأة أو الرجل في الرسوم والمنحوتات – مثلما هو الحال عند الرومان قديمًا ، لأن كل ما من شأنه يثير الفتنة ويحرّك الشهوات ويضلل النفوس مخالف للشريعة

---

(١) راجع: المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٢) مدخل إلى الفكر الفلسفي، جوزيف بوخينسكي، ترجمة وتعليق: د. محمود حمدي زقزوق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص٨٣.

الإسلامية. وقد التقت هذه القيم جميعها في وجدان المسلم، دون تنافر، وعبّر عنها الفنان المسلم تعبيرًا رائعًا تجلى في فنون الحضارة الإسلامية طيلة قرون عديدة، تشهد بذلك المباني المعمارية في العصور الإسلامية المختلفة، التي عكست إيمان الفنان المسلم بالرؤية الروحية الإسلامية ومراعاته البيئة المعاشة وسعيه إلى الجمال في البناء والزخرفة [1].

أما عن مفهوم الرحمة، فمنه الرفق بالشيء، والرفق إذا داخل الأمر زانه وإذا خلا منه شانه، ويكون قولاً وفعلاً وتعاملا. إذن، قيمة الرفق ليست قيمة مطلقة بل متداخلة مع القيم الدينية الروحية والسلوكية.

والراسخ إن هناك قيمًا أساسية تولد مع الإنسان، وتتفق مع طبيعة تركيبه الجسمي والنفسي، منها قيمة محبة الوالدين، وطاعتهما، والعطف على الصغير، والرحمة بين الناس [2]. هذه قيم الفطرة، وهي مفهوم تعزز في الإسلام، فالإسلام دين الفطرة، يولد الفرد عليها، وأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه.

ذلك أن الإنسان يولد وهو صافي القلب والعقل من الشوائب والرذائل، فيميل إلى الحق والصدق، مدركًا أنه حق، وأن الضلال والكذب مفاسد، والإسلام باتفاق العلماء فيه كل نفع وخير وحق، لذا فالإنسان سيكون ميالاً

---

(١) انظر تفصيلاً: العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، د: يحيي وزيري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٠٤، ٢٠٠٤م، ص ٣٢ وما بعدها. وقد أشار إلى اشتراطات الفقهاء في البناء والتجمع البشري، المستقاة من الإشارات القرآنية والنبوية، انظر: ص٤٧ – ٥٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٨٩.

إلى مبادئ الإسلام إذا كان نقي الفطرة والقلب[1].

فينشأ الإنسان على الأرض، ممتلكًا رصيدًا فطريًا من القيم العليا، مثل البطولة والرحمة والحب والنزوع إلى الكمال،"إنها انبثاق ذاتي للكيان الإنساني، لم يفرضها أحد من الخارج، ولا يملك أحد من الخارج أن يفرضها على كيان الإنسان... ودلالتها قائمة فيما تنطوي عليه الفطرة البشرية من حب للارتفاع فلولا هذه الرغبة الفطرية في الارتفاع ما وجدت أصلاً صورة الكمال في خيال البشرية"[2]. وفي الوقت نفسه تتنازع الإنسان خطوط متقابلة مثل: الخوف والرجاء، الحب والكره، الطاقة الحسية والطاقة المعنوية، الرحمة والقسوة...، إنها نتيجة لقبضة الطين(الأرضية) ونفخة الروح (الربانية)[3]، والإنسان مطالب بأن يسمو متخليًا عن أرضيته، متعاليًا إلى خالقه، وهو مثاب من الله تعالى كلما جدّ وسعى نحو السمو الإيماني والأخلاقي.

وفي الحضارات القديمة، كانت الأخلاق لها مكانة سامية وهذا طبيعي، فلا تستقيم المجتمعات دون أخلاق، ولن تتقدم الشعوب دون وجود نوازع خلقية سامية تحكمها، لأن القسوة والأنانية والعنف والهمجية أخلاق شريعة الغاب، أما بنو البشر فلهم أخلاقهم، التي تختلف نسب قيمها باختلاف المجتمعات والحضارات الإنسانية، فالحضارة الفرعونية في مصر، كانت حضارة مادية زاهرة،

---

(١) معنى فطرية الإسلام عن الإمام ابن تيمية، د. عبد الحليم أحمدي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٢٠، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص٣١٦. وقد أشار المؤلف إلى أن هناك اختلافًا بين علماء الإسلام في مفهوم الفطرة، حيث يفسرها ابن تيمية بأنها الإسلام ولا غير، في حين يفسرها الباحث بأنها: خلو الذهن البشري من كل شيء، ولكن لديه استعدادات فطرية لفهم الخير والحق إذا عرض أمامه. ص٣٠١.

(٢) دراسات في النفس الإنسانية، مُحَمَّد قطب، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط٦، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٢٥٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٧٢، ٧٣.

وفي الوقت نفسه كانت ذات نزعة أخلاقية عظيمة، ارتبطت بالتكوين الديني الذي ميّز المصريين القدامى، وجعل غايتهم في الحياة العمل لما بعد الموت، فشيدوا المعابد والأهرامات والمقابر. لقد كانت أبرز أخلاقهم:"الاعتراف بالجميل، والحب والشفقة وحب الخير الحقيقي، وكل أنواع الخلق المجردة عن الأنانية"[١] وقد وُجِدَت نقوشٌ على جدران المقابر دلت على سمو الإحسان إلى الفقراء، والضعفاء، وحفظ اللسان، وتحتوي متون الأهرامات على أدلة قاطعة عن العدالة والحق، وقد كانت قوتهما أقوى من سلطان الملك نفسه[٢].

ولو ألقينا نظرة عجلى على قيمة الرحمة في الفلسفة بشكل عام، والفلسفة الأخلاقية بشكل أخص، لوجدنا تفاوتًا في النظر إليها، من قبل الفلسفات المختلفة.

لقد رفعت الفلسفة اليونانية القديمة قيمة الرحمة البشرية منطلقة من مبدأ الوسط والاعتدال الذي يميّز مناهج الفلسفة الإغريقية، فالفضيلة معرفة، والعاطفة ليست رذيلة، وإنما الانحراف فيها رذيلة، والانسجام والاعتدال فضيلة. والإنسان المثالي في رأي أرسطو هو من يساعد الناس، مضحيًا بنفسه في الأزمات الكبرى، ولكنه لا يقبل المساعدات من الآخرين، لأنها دليل على التبعية والانحطاط والمذلة[٣]. إن أفلاطون – رغم سمو نزعته – حرّم استرقاق اليونانيين، وأباح قتل الأعاجم في الحرب وتخريب بيوتهم، وأيده في ذلك أرسطو، وزاد عليه بأن رفض المساواة بين الناس؛ فالأقلية الذكية القائدة يجب

(١) فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د. سليم حسن، سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٣٥.

(٢) السابق، ص١٤١.

(٣) انظر: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، وِلْ ديورانت، ترجمة: د. فتح الله مُحَمَّد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ص٨٨ – ٩٠.

اختصاصها بأفضل الأشياء، ويطالب الأكثرية (عامة الشعب) بالقناعة، وهو – في كل ذلك – لا يذكر مصطلح"حب البشرية"بشكل عام [١].

وقد تلاقت مبادئ بوذا في الهند[٢] والمسيح – عليه السلام– في الشرق؛ في تبيين فضل الرحمة واللين والمحبة والمساواة بين الناس، ودفع الشر بالخير، وأن الحب فضيلة عليا[٣] فأخلاق الإنجيل يسودها فكرة"الحب والإحسان والعفو"أما الأخلاق اليهودية فيسودها فكرة"العدل الثأري"، أي أن يثأر للمعتدى عليه من المعتدي، فيوقع به ما أوقعه هو دون زيادة؛ صيانة للعدل[٤].

وقد ظهرت فلسفات غربية عديدة – في عصر النهضة والعصر الحديث – اختلف منظورها وحكمها، فهذا"ميكافيللي"يحبذ العنف والرجولة، ويدعو إلى عدم المساواة بين الناس، ويمجّد الحرب والحكم، ويعد القوة هي الفضيلة ويعظّم الارستقراطية الوراثية في الحكم [٥]. وتطرف"سبينوزا"أكثر في معاييره الأخلاقية،

---

(١) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م، ص ٧٨.

(٢) كانت فلسفة النيرفانا تعتمد على قهر النفس والتحرر من الهوى، إنها فلسفة الالم، فالمولد ألم والهرم ألم، والمرض ألم والموت ألم والحياة كلها ألم في ألم. وقد سعى كذلك رزرادشت إلى الكمال ورأى أن النصر سيكون للخير والعطف والرحمة. انظر: الفكر الشرقي القديم، جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م، ص١٩٤ وما بعدها، وانظر أيضًا: بدايات الفلسفة الأخلاقية: الأخلاق في التراث البدائي والشرقي واليوناني، د.مُحَمَّد عبد الرحمن مرحبا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، دت. ص٨٠ – ٩٥.

(٣) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٤) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، وأبو بكر ذكري، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م، ص ١٦٧. وفي تعليق المترجمين: إن روح التشريع الإسلامي مع الدعوة إلى حسن الاقتضاء وإيثار العفو اختيارًا وطواعية بلا إجبار ولا إلحاح.

(٥) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص ٢٢٥.

حيث رأى السعادة في وجود اللذة، وانتفاء الألم، وأن جميع الفضائل متفرعة عن القوة والمقدرة، ويترتب على هذا أن يكون لوم الضمير أو الندامة نقصًا لا فضيلة، والشعور بالتأسف يضاعف من شقاء الإنسان ويزيد في ضعفه[١]، وبالتالي تغيب الرحمة – قيمةً ومبدأ – من حساب ميكافيللي الذي يضع المصلحة الفردية هدفًا تذبح القيم البشرية في سبيله، فلا مجال للرحمة والرأفة مع الإنسان، إذا كانت ستعوق الفرد – العظيم – عن تحقيق حلمه ومجده في الحياة، لأن الناس مفطورون على الأنانية، وللفرد أن يتخلى عن مبادئ الأخلاق إذا عاقته عن تحقيق أهدافه، وأن يلجأ إلى الجريمة والمكر والخداع والدهاء والالتواء[٢].

أما"شوبنهور"فيرى الحياة شرًا لابد منه، لا يكاد الإنسان يشعر براحة من الألم والحاجة؛ حتى يتملكه شعور بالسآمة والملل مما يدفعه إلى البحث عن شيء يعوضه الشعور بالسأم، فيبدأ في مواجهة المزيد من الألم. أي كلما كانت للإنسان رغبة أو حاجة – أيًا كانت – فهو يعاني ألمًا حتى يشبعها [٣]. ولأن الشهوات البشرية لا إشباع لها، فكلما امتلك المرء لذة شعر بالملل، وهكذا دواليك، بدلاً من أن يؤدب الفرد نفسه، ويهذب مشاعره، ويكبح رغباته، يعمل على النقيض، من أجل إشباع هذه الرغبات بكل شكل. لا مجال – إذن – للنظر إلى مآسي الآخرين وآلامهم، ولا مجال للتعاطف معهم، فالمرء – وفقًا لشوبنهور – مشغول بنفسه ولذائذه؛ وبعبارة أخرى: المرء عبدُ شهوتِه، أناني في تفكيره، لا يهمه الآخرون في شيء.

---

(١) انظر: السابق، ص٢٢٦ – ٢٢٩.

(٢) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٣) انظر: السابق، ص٤١٦– ٤١٨.

ولو اتجهنا إلى"هربرت سبنسر"نجده متشبعًا حتى النخاع بعلم الحياة (البيولوجي)، ويرى إخضاع القيم والفلسفة البشرية إلى قوانين التطور والانتخاب، فالأخلاق مثل أي شيء آخر، تكون خيرًا أو شرًا بمقدار ملائمتها لغايات الحياة، وأعظم الأخلاق هي التي تساعد على أعظم حياة وأكملها (يقصد: بالحياة اللذة الجسدية) فوفقًا لقانون التطور، فإن السلوك يكون أخلاقيًا بمقدار ما يساعد الفرد أو الجماعة على الكمال والوحدة، في وسط تنافر الغايات. ويرى سبنسر أن الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث هو مقياس اللذة، واللذة تشير إلى منفعة الشيء من الوجهة البيولوجية، والألم – كذلك – يشير إلى خطورة الشيء من الناحية البيولوجية [١]. ويعلق ول ديورانت على تعريف الأخلاق عند سبنسر بقوله: هذا تعريف غامض للأخلاق، ويتساءل: كيف نترك للطبيعة منح الأخلاق، وهي التي تمجد القسوة والوحشية والخداع والمكر، بدلاً من العدالة؟ [٢].

وهكذا يضل الإنسان من جديد، فبدلاً من السمو الخلقي، ينحدر إلى الدرك الحيواني، فقاس نقسه بمقاييس البهائم: إشباع الحاجات الغريزية، والحصول على اللذة دون نظر إلى عواقبها، وقد تكون اللذة عن طريق هضم حقوق آخرين، أو سلب أموالهم وممتلكاتهم، أو على الأقل عدم الإحساس بآلامهم وفقرهم وحاجاتهم.

إن النزعة الأخلاقية في عصر النهضة كانت ضد حياة التقشف والحرمان، ودعت إلى التمتع بلذات الحياة، فارتفعت شأن النزعة الفردية Individualism[٣]،

---

(١) راجع: الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، ص ٤٨٥–٤٨٨.

(٢) السابق، ص ٤٨٥.

(٣) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص١٣٣.

وقد شاعت هذه النزعة في معظم الفلسفات في أوروبا وأمريكا التي ظهرت في العصر الحديث منذ القرن الثامن عشر إلى الآن.

ونلتقي – في العصر الحديث – مع فلسفة"نيتشة"حيث نرى مزيدًا من التطرف الفكري، وهذا طبيعي من فيلسوف أعجب بفلسفة"زرادشت"، لقد فرق"نيتشة"بين أخلاقين: أخلاق السادة، وأخلاق الطبقات العامة. أخلاق السادة: جرأة ورجولة وإقدام وشجاعة وحب المخاطرة، أما أخلاق الطبقات العامة فهي: خنوع وذلة وسلام وسكينة وضعف وعجز، وهي قدمت مع اليهود الذين نشروا هذه الأخلاق في أوروبا، فقد كانوا أمة مستضعفة مستعبدة مغلوبة. ويقول"نيتشة":"إن فصاحة الأنبياء هي التي جعلت أخلاق الطبقات المحكومة الضعيفة منتشرة، وأصبحت الدنيا والجسد عنوانين للشر، وأضحى الفقر برهانًا على الفضيلة. فالأخلاق هي إرادة القوة، والحب رغبة في التملك، ومطارحة الغرام معركة، والزواج سيادة. إن الحياة طافحة بالشر والقسوة وإن الإنسان القديم كان يشعر بنشوة كبرى وفرحة عظمى بارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة". وقد نادى"نيتشة"بنظرية الإنسان الأعلى"السوبر مان"، الذي ينتخبه الشعب، ويسعى لتحقيق رغبات الشعب، ولا ينساق لعواطفه، ويسلك في سبيل الوصول إلى هدفه كلَّ طريق إلا خيانة الأصدقاء. وقد كان"نابليون بونابرت"نموذجًا لهذا الإنسان الأعلى، نموذجًا في عبادة الذات، وتمجيدها، فقلَبَ الجمهورية الفرنسية التي أقيمت بدماء الثوار الفرنسيين، إلى امبراطورية ونصّب نفسه امبراطورًا [1].

إن"نيتشة"– شأنه شأن ميكافيللي – كان ملهمًا لكثير من السياسيين،

(١) انظر: فلاسفة من الشرق والغرب، مصطفى غالب، منشورات حمد، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ص٢٤٣م.

الذي رضعوا أفكاره، وعدّوا الحياة صراعات من أجل تحقيق الذات، دون النظر إلى الشعوب المستكينة، أو الاستماع لآلام الفقراء، وشكاوى التعساء والمحتاجين، فهذه الآلام من ميراث الأنبياء، الذي هو ميراث أخلاق الضعاف الأذلاء!!

كما عارض"نيتشة"بشدة الأديان، ووجّه إليها أشد النقد، وفي رأيه أن"الروح الدينية تفتقر إلى كل فهم للقوانين الطبيعية، وما الأديان إلا امتداد للتفسير البدائي، الذي كان يفهم كل شيء من خلال السحر والخرافة"[١].

وسارت الفلسفة الاشتراكية على نفس المنحى من إنكار المنظور الديني للقيم الإنسانية، وتطرفت أكثر في نظرتها للدين، فهذا"فيورباخ"أحد فلاسفة الاشتراكية في القرن التاسع عشر، ينتقد الأديان ويرى أنها في جوهرها، وسيلة لإشباع بعض الحاجات الإنسانية العميقة، وعدّ اللاهوت مجرد تمديد قام به الخيال عند الإنسان نفسه، وقال إن الإنسان خلق الله على صورته هو، وهو رأي سبقه إليه"شوبنهور"العام ١٨١٩م، ونادى"فيورباخ"بإحلال الإنسان محل الله، بوصفه انطلاقًا لكل تفكير فلسفي واقعي [٢].

وجاء"كارل ماركس"برؤيته المادية للتاريخ، فأعطى الأولوية للحاجات التي تشبع بالسلع المادية مثل الطعام واللباس والمأوى...، على الحاجات التي تقتضي إشباعًا غير مادي. وقد نادى بتفسير حاجات الشعوب تفسيرًا اقتصاديًا، فالإنسان يأكل قبل أن يفكر، ولم يعتد ماركس – مطلقًا – بالعقائد الدينية، ولا بدورها في تكوين الإنسان وتنمية المجتمع، وترابط المجتمع، بل ذهب

---

(١) السابق، ص٣٤٧.

(٢) رواد الفكر الاشتراكي (١٧٨٩ – ١٨٥٠)، البروفيسور: ج.د.هـ. كول. ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص٣٨٦م، ٣٨٧.

إلى أن نشوء المجتمع وتطوره يتوقفان على الصفة المتغيرة لقوى الإنتاج، ومدى سيطرة الإنسان على الطبيعة، وأكد ماركس ورفيقه إنجلز على أن البشر لا يتحركون إلا بدوافع اقتصادية أو مصلحية [1].

في الفلسفة الاشتراكية: إنكار تام للدين، والتعامل مع الأديان على أنها اختراع بشري، لإشباع حاجات الإنسان النفسية والعقلية نحو القوى المجهولة. وإنكار – أيضًا – للدوافع النفسية والذاتية في أعماق الفرد، واعتراف بأن المصلحة والحاجة المادية والجسدية (ضد النفسية) هي المحركة للأفراد والشعوب، وتسليم بأن القيم – وهي نفسية الطابع – لا قيمة ولا دور لها في تكوينات الأفراد ودوافع الجماعات الإنسانية. إذن: الإنسان في منظور الفلسفة الاشتراكية: كائن يبحث عن شهواته وحاجاته المادية، ومادام الدين لا وجود له، فلتذهب كل قيمة إلى الجحيم الدنيوي لأنه لا يوجد جحيم أخروي عندهم، ولا داعي للرحمة بالضعيف والمسكين والمحتاج، لأن الدولة الاشتراكية متكفلة بهؤلاء، وليتفرغ الإنسان الفرد لإشباع غرائزه، فتلك هي مشكلته. إنها ضلال عقلي، وضلال نفسي، فالإنسان أصبح حيوانًا.

وقد جاء عدة فلاسفة معارضين لهذا الحمق الفلسفي، وكان من أبرزهم"برتراند رسل"الذي عارض سياسة بريطانيا في الحروب، وفساد نظامها الملكي، واعتقد أن الداء هو الملكية الخاصة، والدواء هو الشيوعية مع صبغها بالأخلاق الطيبة، للتخلص مما ينتاب العالم من جشع اقتصادي ووحشية دولية، وشدد على أهمية أن يسيطر الإنسان على نفسه ويكبح جماحها ضد الحرب والقتال[2]. واتفق معه"سنتيانا"الذي نادى بالعودة للمسيحية مفضلاً

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٣٩٦، ص٤٠٠، ص٤٠٥ – ٤٠٧.

(٢) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، ص ٥٩١– ٥٩٤.

الكاثوليكية على البروتستانتية، ورأى أن أخلاق المسيحية فيها الكثير من السماحة والرحمة واللين [١].

أما"وليم جيمس"صاحب الفلسفة البراجماتية (النفعية)، فإنه لا يعبأ كثيرًا بالأخلاق، ولا بالأفكار، بقدر ما ينظر إلى القيمة الفورية للفكرة، فلا يهتم بمصدر الفكرة ولا مقوماتها، وإنما ينظر إلى نتيجتها وفعاليتها، فلا يعنى بكنه الأمر، بل عاقبته. ولكنه في المنظور الأخلاقي لا يركز على أهمية تحقيق رغبات الفرد، فليس من المقبول أن تتناقض أخلاقنا مع نزعاتنا، فالناس يقبلون الفلسفات وفقًا لحاجاتهم وطباعهم لا وفقًا للحقيقة الموضوعية [٢]. وهكذا، يعود"جيمس"إلى إرضاء الذات الفردية، وإعلاء قيمة الأنانية دون الاهتمام بالمنظور المجتمعي.

وقد عارض أحد الفلاسفة نظرية المنفعة بقوله:"إن المبدأ الأصفى للفضيلة هو – إن لم أكن مخدوعًا – الرغبة في أن يكون المرء راضيًا عن نفسه: وهل تكون تلك الرغبة إلا نتيجة للأنانية بمعناها الصحيح؟"[٣].

وجاء الفيلسوف الأمريكي"جون ديوي"، ليعيد الاهتمام إلى نظرية دارون، فيؤمن بها إيمانًا تامًا، لا غموض ولا تستر فيه، لذا، لا يفسر الأمور على أساس العلة والمعلول وما فوق الطبيعة، بل على أساس مكانها وعملها وفائدتها في البيئة. وبالتالي فقد عاب على الفلسفة – قديمًا – اختلاطها بالأبحاث الدينية، وعدّها صدى للاهوت[٤].

---

(١) السابق، ص٦٠٩.

(٢) راجع: السابق، ص ٦١٨– ٦١٩.

(٣) مقولة للفيلسوف"دالبرت"، المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، مرجع سابق، ص٢٦١.

(٤) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، ص ٦٢٦ – ٦٢٧.

أما عن مستقبل"أخلاق الفضيلة"، فإنها ستنفصل عن الأخلاق النفعية أو الغائية، وستصبح مركزة على تعديل السلوك البشري وتقويمه، على صعيد الميول والنزعات المختلفة للشخصية التي تعزز الحياة العملية أو تهدف على تحقيق كمالها، وستزدهر ولكنها ستكون غير قائمة على الإيمان أو المنظور الديني[1].

ولو عدنا – للمقارنة – إلى فلاسفة المسلمين قديمًا، فإن القاسم المشترك في فلسفتهم الأخلاقية أنها متغلغلة في كل فروع المعرفة الإسلامية، وأن الأخلاق نابعة من معين الإسلام، بالرغم من تأثر فلاسفة المسلمين بالفلسفة اليونانية، ولكن قضية الأخلاق كانت محسومة بالنسبة إليهم، وقد اتفق جمهور الفلاسفة وفي مقدمتهم: أبو حامد الغزالي وابن مسكويه على اعتبار الرذائل أمراضًا نفسية تتطلب العلاج، وكان علم الأخلاق عندهم صناعة تستهدف السعادة الحقيقية، وذهبوا إلى أن كمال الأخلاق يكون بالتحلي بأخلاق الله،ومنها أن يكون الفرد: رحيمًا ودودًا محبًا عطوفًا [2] أما موقفهم من الأخلاق اليونانية فهو:"إذا كانت أخلاق اليونان فاضلة، فعندنا ما هو أفضل منها...، وإن كانت أخلاق اليونان فاسدة، فنحن نعوذ بالله من كل فساد"[3].

من خلال التطواف السابق مع الفلاسفة ونظراتهم للرحمة بالبشر، نلاحظ

---

(١) انظر: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين، آفاق جديدة للفكر الإنساني، تحرير: أوليفر ليمان، ترجمة: مصطفى محمود محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٣٠١)، ٢٠٠٤م، ص ١٠٩، ١١٠. يذكر الفيلسوف"انسكومبي"في كتابه الفلسفة الأخلاقية الحديثة (١٩٨٥م) إلى أن السلوك يسير وفقًا للفضائل في ظرف معين أي أنه يُختار عمدًا على تقديراته وينبثق عن شخصية قوية. والميزة العظمة – المستقبلية – أن نظرية الفضيلة ابتعدت عن نظرية المنفعة.

(٢) الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص١٣٦-١٣٩.

(٣) في الفلسفة والحقيقة، د. عبد الحليم محمود، دراسة في مطلع كتاب: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، مرجع سابق، ص١٤.

عدة أمور:

- إن الرحمة بالبشر لم تكن همًا شاغلاً لدى جل الفلاسفة، بل شغلتهم اهتمامات أخرى، وإن الرحمة بالبشر – بوصفها قيمة وخلقًا – لم تكن في أولويات الكثير منهم، بل انشغلوا بمشكلات الفرد ووجوده.
- إن عقل الفيلسوف نتاج لشخصه ولبيئته المجتمعية، أي تحركه الأهواء والنزعات الخاصة، فهو يضل ويشقى، وقليل منهم من يعرف الجادة المستقيمة.
- إن كثيرًا من فلاسفة أوروبا كان لهم موقف معاد من الدين، وهذا ناتج عن الفكر اللاديني الذي طغى على الفكر الغربي، نتيجة تسلط الكنيسة وانحرافاتها.
- عندما نقارن بين الرسول مُحَمَّد (ﷺ) وبين الفلاسفة، وهم جميعًا بشر، ندرك أي نقص يجتاح العقل إذا غابت المعية الإلهية عنه، فالوحي السماوي يهدي الفرد إلى جادة الصواب، وكلما ضل العقل، كان الوحي عاملاً لتقويمه.
- إن الأخلاق التي أرساها الإسلام، هي أخلاق إنسانية فطرية في الأساس، ولكن الفرق بين الإسلام شريعة وفكرًا، وبين الفلسفات، إن الأخلاق عندما ترتبط بالإسلام، فإنها لا تتغير، بل تظل ثابتة راسخة، رسوخ الدين ذاته، أما عندما ترتبط بالنظريات الفلسفية فهي متغيرة حسب أهواء الفيلسوف، وطبيعة مجتمعه.
- بناء على النقطة السابقة، فإن خلق الرحمة بالبشر، خلق أساسي في منظور الإسلام وفي شريعته، ثابت لا يستطيع مسلم مهما كان أن يغير

فيه أو يستثنيه. وكلما انحرف المجتمع المسلم في أمر، كانت الشريعة هادية ومرشدة له.

- إن خلق الرحمة بالبشر في منظور الإسلام ليس ألمًا نفسيًا ولا إحساسًا باللذة، بقدر ما هو خلق ثابت من أخلاق المسلم الفرد، لا يمكن أن يستغني عنه، وخلق للمجتمع المسلم في تراحم أبنائه وترابطهم.

الرحمة بالبشر في مواثيق حقوق الإنسان الدولية:

عند قراءة المواثيق الدولية التي تعنى بحقوق الإنسان، نجد الرحمة بالبشر منطلقًا أساسيًا وهدفًا مثاليًا، يبدو ذلك في نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد ورد فيها:"يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء، ولكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أي نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي – سياسيا كان أو غير سياسي –، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر. وفضلا عن ذلك لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص، سواء أكان مستقلا أو موضوعا تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعا لأي قيد آخر علي سيادته، ولكل فرد حق في الحياة والحرية وفى الأمان على شخصه. ولا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطة بالكرامة"[1].

---

(١) حقوق الإنسان: مجموعة صكوك دولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٣، المواد (١– ٤) من موقع جامعة مينيسوتا الخاص بحقوق الإنسان.
ttp://www1.umn.edu/humanrts/arab

ومن أهداف ميثاق الأمم المتحدة أنه يدعم مبدأي: الكرامة وتساوي جميع البشر، باحترام الحريات الأساسية للناس، ومنع التمييز، وأن التمتع بالحقوق أمر لا خلاف فيه، والكل أمام القانون سواء، وضمان التقاضي العادل[1].

فها هي البشرية في القرن العشرين تصل – بعد طول عناء – إلى هذا الميثاق، الذي ينص على مبادئ الرحمة الإنسانية بصور وأشكال مختلفة تخص بني البشر جميعًا، وأهم المبادئ التي اشتملها هذا الإعلان: حرية الفرد، مساواته، عدم التمييز التعسفي نحوه، حقه في العيش في أمان، الحفاظ على كرامته.

وبنظرة مقارنة، نجد أن التشريع الإسلامي قد اشتمل على هذه المبادئ، فقد أكدت الشريعة على مبدأ المساواة، وإلغاء نظام الطبقات، والتفاخر والتعصب بالأنساب، وجعلت المفاضلة أساسها العمل الصالح الذي هو عبادة ومعاملات، مؤسسًا على الرحمة البشرية، فالزكاة – مثلاً – فرض تعبدي، وهي صورة سامية للتراحم البشري في المجتمع المسلم، كما أكدت على أهمية بناء الكرامة الإنسانية، وحفظت الحريات العامة وأهمها: حرمة النفس والعرض والمال والعقيدة والعمل والتعلم وإنصاف المرأة والحفاظ على النسل من الضياع. كما حثت على السلام والإخاء وأجازت الحرب الدفاعية عند الاعتداء من الدول الأخرى، وسنّت أحكامًا خالدة في الحروب مثل عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة وعلماء الدين وعدم إتلاف الأشجار والأبنية، كما شددت على نصرة المظلوم ولو كان مشركًا[2].

---

(١) موسوعة حقوق الإنسان، إعداد: محمد وفيق أبواتله، مراجعة: د. جمال العطيفي، نشر: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٤٣.

(٢) انظر: أركان حقوق الإنسان (بحث مقارن في الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة)، د. صبحي المحمصاني، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص ٣٢– ٣٥.

والأصل في الإسلام أن الإنسان له مكانة خاصة يتقدم بها على الكثير من المخلوقات، كما يقول الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وأن الإنسان وحدة فريدة متميزة بوصفه فردًا، وأيضًا هو جزء أصيل من كيان مركب هو الجنس البشري، وأنه يولد متمتعًا بالكرامة، وبكامل حقوقه في الاختيار، ولا ينبغي إجباره أو حمله قسرًا على القيام بتصرف معين، إلا في حدود مقتضيات النظام العام الذي يقوم عليه المجتمع ومراعاة مصلحة أفراده، هذا ينطبق على الفرد المسلم، وعلى غير المسلم، الذي يعيش في كنف الدولة الإسلامية؛ فيما يتصل بالحقوق الأساسية للمواطنة، مثل الحق في حماية الحياة والشرف والملكية وحرية الفكر والعقيدة والمعتقد وغير ذلك [2].

لم يكن الأمر مسألة فلسفية، أو يخضع لمعايير سياسية ومصلحية عند التطبيق، مثلما هو حادث الآن، بقدر ما كان واقعًا معاشًا مطبقًا، في شخص الرسول الكريم (ﷺ) قولاً وفعلاً، وفي سلوك الصحابة ومن تبعهم في الفتوحات الإسلامية، فـ"الإسلام لا يحب أن تكون دعوته مجرد فكرة في الرؤوس أو حلمًا في أخيلة المصلحين، بل يجب أن يربط الفكرة بالعمل والنظرية بالتطبيق، ولهذا دعا إلى مجموعة من الشعائر والآداب والتقاليد من شأنها أن توثق روابط المحبة بين الناس إذا عملوا بها وحافظوا عليها"[3].

وهناك شعوب كثيرة دخلت الإسلام لما رأوه من رحمة الجنود المسلمين

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

(٢) انظر: حقوق الإنسان في العالم المعاصر، د. سعاد محمد الصباح، دار سعاد الصباح للنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٦م، ص٢١، ٢٢.

(٣) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص١٥٨.

وتسامحهم، وبعض الشعوب المسلمة آمنت بالإسلام دينًا دون قتال أو فتح، إنما عبر العلاقة المباشرة بين التجار المسلمين وهذه الشعوب، فرأوا الرحمة والعدالة والأمانة، فدخلوا الإسلام أفواجًا. إن هذا الدين حمل إلى الناس روحًا إلهيًا، فيها من قوة السريان وعظم السلطان، ما لجميع الحقائق الخالدة.

وعند مقارنة انتشار الأديان الأخرى بانتشار الإسلام، نلاحظ أن السرعة التي انتشر بها الإسلام حيرت مؤرخي العالم الغربي، فلم يدون التاريخ انتشارًا لدين مثل الدين الإسلامي، فالديانة الموسوية لم يجاوز انتشارها بني إسرائيل ولا تزال في الحدود التي كانت عليها من لدن وجودها. والدين المسيحي بقى نحو ثلاثة قرون محصورًا في طوائف مبعثرة، لم تقم له دولة، إلى أن تولى الامبراطورية الرومانية كونستانتين الأول، وكانت أمه قد ربته على الديانة المسيحية فحمل قومه على النصرانية وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية وعدّ النصرانية ديانة رسمية للامبراطورية الرومانية (٢٧٤-٣٣٧)، ثم قام النصارى الرومان بإرسال بعثات تبشيرية منتظمة إلى البلاد البعيدة، وقد كان فيها إجبار أحيانًا، وعندما وصل الأوروبيون إلى أمريكا في القرن الخامس عشر، وجد المبشرون فيها ميدانًا واسعًا للحركة، وإن قاموا بممارسات شنيعة ضد الهنود الحمر، سجلها التاريخ لهم، ودونها مؤرخوهم تفصيلاً [1].

أما تعليل السرعة في انتشار الإسلام فهو ظاهرة نفسية مدهشة، تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الأقوام تلقفوا مبادئ هذا الدين لما آنسوا فيه من منزلة إنسانية، ليست لأمة العرب فقط، بل لجميع الأمم، علمًا بأن القرآن لم يذكر في خطابه أمة بعينها فقط، فلم يقل مرة واحدة يا أيها العرب، ولكنه قال

(١) انظر: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مُحَمَّد فريد وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٧٧.

عشرات المرات يا أيها الناس، ويا أيها المؤمنون، وقد رأت الشعوب الجديدة أن الإسلام غذاء روحي، وشفاء للقلوب [١].

لقد انطلقت منظومة التشريع في الإسلام التي حكمت مختلف المجتمعات المسلمة على امتداد قرون عديدة من مبادئ الرحمة بالبشر، قد تكون هناك ممارسات منحرفة من بعض الحكام أو المحكومين، ولكن الإسلام وشريعته بمنأى عن هذه الممارسات، فلا تقاس النظرية على الممارسة الخطأ، وإنما تقاس من خلال صحتها النظرية، وحسن تطبيقاتها العملية.

ولا يزال الإسلام"يوفر لغة ومفاهيم لبحث العلاقات الدولية. ويقدم – أيضًا وهو أمر مهم – شعورًا بالهوية المشتركة لمجموعة إنسانية تتخطى حدود الدول والقوميات، وهذه اللغة تتسم بالمرونة والانفتاح"[٢]

إن اللغة المقصودة لغة نابعة من القيم الإنسانية التي رسخّها الإسلام، منذ خمسة عشر قرنًا، ومنها: أن إقامة العلاقات الإنسانية على الأخلاق الكريمة ركن في رسالة الإسلام، ومن هذه الأخلاق: العدل والمساواة والبر، كما أن المسؤوليات في الجنايات الخاصة فردية، فلا أحد يؤخذ بجريرة غيره، والعدل بين الناس حق لهم، والظلم محرم فيما بينهم مهما كانت أديانهم أو ألوانهم أو قومياتهم [٣]. إنها مبادئ التراحم البشري، التي يسعى العالم أجمع لنشرها وتثبيتها

---

(١) المرجع السابق، ص٧٩.

(٢) الإسلام والقانون الدولي: صراع بين رؤيتي المصالح والقيم في العلاقات بين الأمم، فرد هاليداي، بحث منشور في مجلة الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد، بيروت، العدد ٤، السنة ١٤، ربيع ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ٦٩.

(٣)"على أي أساس نتعايش؟"ورقة من إعداد مجموعة من المثقفين السعوديين، في ردهم على الرسالة الأمريكية التي تحمل عنوان: على أي أساس نقاتل؟، مجلة الاجتهاد، العدد السابق، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

في التعاملات الدولية والشعبية.

لقد سار المسلمون في سائر الأزمنة على هدي الآية الكريمة:﴿لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾ [1]، وعلى نبراس قوله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ [2]

فهذه هي رسالة الإسلام: دعوة لكل خير، أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، نشر العدل، ليس بين المسلمين فحسب، وإنما للبشرية جمعاء.

وفي المبحث التالي، سنتناول المنظور الإسلامي للرحمة البشرية من خلال آيات القرآن الكريم وفي التشريع الإسلامي.

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٤)

(٢) سورة الحديد، الآية (٢٥)

المبحث الثاني

الرحمة بالبشر
في الخطاب القرآني والتشريع الإسلامي

الرحمة بالبشر في الخطاب القرآني للنبي الأعظم (ﷺ):

استقى الرسول (ﷺ) أخلاقه من القرآن الكريم، وتربى بهدي من آياته، وقد قال الله تعالى في وصف رسوله:﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [1] وجاء في تفسير الآية: إنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام، أو لعلى أدب عظيم وكما نعتت السيدة عائشة –رضي الله عنها– المصطفى بقولها:"كان خلقه القرآن"وفي رواية: أجابت السيدة عائشة عن سؤال سعد بن هشام عن خلق الرسول، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله (ﷺ) كان القرآن. ومعنى هذا: أنه– عليه الصلاة والسلام – كان ممتثلاً للقرآن الكريم أمرًا ونهيًا وسجية له، وخلقًا تطبّعه وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعَلَه، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل[2].

---

(١) سورة القلم، الآية (٤)

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، مصر، د. ت، ج٤، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

وفي رواية أخرى، عن أبي الدرداء – ﷺ – قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله (ﷺ) فقالت: كان خلقه القرآن يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه. وردت على سؤال آخر، قالت: كان خلق رسول الله (ﷺ) القرآن ثم قالت: أتقرأ سورة المؤمنين إلى العرش، قال: نعم، قالت: هكذا كان خلق رسول الله (ﷺ) [1].

ولننظر إلى تفسير ابن كثير – فيما رواه عن التابعين – للفظتي:"خلق عظيم"، نجده يحصره في دلالتين: الدين، وحسن الخلق. وإذا كانت الدلالة الثانية واضحة، وتتناسب مع جوهر بحثنا عن حسن الخلق والرحمة بالبشر، وقد رجّحها ابن كثير فيما رواه بعدئذ في وصف الرسول، وفي الشواهد من كلام السيدة عائشة ﷺ ومواقف الصحابة. إلا أننا نرى أن الدلالة الأولى"الدين"تندرج ضمن المضمون الكلي للآية، وهذا نابع من مترادفات لفظة"الدِّين"والتي منها دلالات: الطاعة والعبادة، والذل والانقياد، وأيضًا: اسم لما يتعبد الله عز وجل به [2]. وبما أن التحلي بحسن الخلق وسيلة يتعبد به المؤمن لله تعالى، فإن ما أوردته الآية من لفظ"خلق عظيم"هو علاقة جزئية بالكل وهو الدين، الذي يشمل الطاعة والعبادة والانقياد.

ويعمّق الزبيدي – صاحب معجم تاج العروس – معنى"الدين"بوصفه مفهومًا شاملاً وذلك بإيراد أقوال منها، قول ابن الكمال:"الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عن الرسول"، وقال غيره:"وضع إلهي

---

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، الإمام ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، ص٥٨، ٥٩

(٢) القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ١٥٤٦. وانظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج١، مادة دين.

سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"[1]. وبالطبع يكون خلق الرسول في طليعة ما يتلقاه المؤمن عن الرسول، وأن الخلق الحسن جزء لا يتجزأ من جماع الخير الذي يتلقاه أصحاب العقول، ويسعون إليه. وبذلك يكون الجمع لدلالة"خلق عظيم"في آية سورة القلم يأتي بين دلالتين: دلالة الدين بمعنى العبادة والطاعة والانقياد وهي دلالة شاملة، ودلالة الخُلق العظيم الجزئية للرسول – عليه الصلاة والسلام – بوصفه مصدرًا ثانيًا للتشريع والتلقي في الإسلام، فالدلالة عامة وخاصة.

إن هذه الآية:"تحمل الشهادة الكبرى والتكريم العظيم...، وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود"[2]، فهذه الكلمة الربانية تبرز عظمة الرسول – عليه الصلاة والسلام – في عدة نواح:"تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله. وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة مُحَمَّد (ﷺ) لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين. إن إطاقة مُحَمَّد (ﷺ) لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل – ولو أنها ثناء – ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، السيد مُحَمَّد مرتضى الزبيدي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، مج ١٨، ص٢١٨. ضمن تعليقه على معنى الدين.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، دون تاريخ، ج٦، ص ٣٦٥٦.

توازن.. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل"[1].

يحلّق التعليق السابق للشهيد سيد قطب عن الآية الكريمة في أجواء مختلفة، إنها أجواء الوصف الرباني لخلق المصطفى، وقد توقف المعلق – رحمه الله – أمام بعدين: بعد القائل الواصف – جل شأنه وتعالى –، وبعد الموصوف – عليه الصلاة والسلام –، ما بين العظمة الربانية، وعظمة شخصية الرسول، ومن مظاهر هذه العظمة خلق المصطفى في تعاملاته وسلوكه. يسهب سيد قطب في معنى العظمة الأخلاقية للرسول (ﷺ)، فيقول:"والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها، يجد العنصر الأخلاقي بارزًا فيها، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء.. الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى: الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ومطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معًا للنية والضمير"[2].

جاءت الرحمة – في النص السابق – خلقًا ضمن أخلاق سامية أرستها العقيدة، وتحلى بها الرسول الأعظم (ﷺ) ونلاحظ أن البعد الأخلاقي من الأصول التشريعية والتهذيبية للإسلام، ومن ثوابت العقيدة الإسلامية. والرحمة خلق أساسي وليس فرعيًا ضمن الأخلاق العظيمة التي نبعت من المنظومة الإسلامية، فهي تتجاور جنبًا إلى جنب مع أخلاق: الطهارة والأمانة والصدق والعدل وحفظ العهد... إلخ.

إن أخلاق الإسلام ليست روحية فقط، بل تجمعُ: القلبي والسلوكي، القولي والفعلي، وهذا ما جعل لها المصداقية العليا لدى جماعة المسلمين. وقد نظر بعض باحثي الأديان وبعض المستشرقين إلى الإسلام نظرة انشطارية: حيث

---

(١) السابق، نفس الصفحة.

(٢) السابق، ص٣٦٥٧.

وقفوا – برؤية جزئية قاصرة – متعجبين من البعد الاجتماعي والتنظيمي الذي وضعه الإسلام، وهم يقارنون بينه وبين النصرانية والديانات الوضعية الأخرى التي تعلي شأن الروحية والانعزالية، وهذا ما يأباه الإسلام لأنه يتعامل مع الإنسان كلاً متكاملاً، يجمع الروح والجسد، الفردية والجماعية [1].

وبدء هذه المصداقية من اتصاف الرسول الأعظم بها، وتكريم الله تعالى وثناؤه على خلق المصطفى – عليه الصلاة والسلام –، ثم ما رآه الصحابة وجموع المدعوين من اقتران القول والفعل في شخصية الرسول، بمواقف يشهد لها حديث العهد بالإسلام ومن سابق بالإيمان، بل ومن كفر ولازم الكفر عنادًا واستكبارًا.

وخلق الرحمة رآه المسلمون حيًا، فاعلاً في شخص الرسول (ﷺ)، وهذا تصدّقه الآية الكريمة: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ [2]. فهذه الآية:"أصل كبير في التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله...،أي هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله"[3]

فالأسوة هي القدوة، والرسول كان الأنموذج الأنقى والأصفى لأصحابه، وهو في دعوته ليس منظّرًا فيلسوفًا بضاعته الكلام، بل مربيًا هاديًا داعيًا، قولا وفعلاً، وسلوكًا طيبًا في قدوته لأصحابه، والرحمة بالبشر خلق من أخلاقه العظيمة المُتأسَّى بها.

---

(١) انظر: الإسلام والعالم المعاصر (بحث تاريخي مقارن)، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، ص١٠، ١١.

(٢) سورة الاحزاب، الآية (٢١).

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٤.

وروى البراء بن عازب، قال: كان رسول الله (ﷺ) أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا. وقال أيضًا:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[١]

توجيهات القرآن الكريم للرسول (صلى الله عليه وسلم) عن خلق الرحمة بالبشر:

لقد فصّلت الآيات القرآنية الكثير من أخلاق الرسول (ﷺ) وعمّقت خلق الرحمة بوصفه خلقًا محوريًا نابعًا من أسماء الله الحسنى وصفاته فهو – جل شأنه – الرحمن الرحيم.

يقول المولى تبارك تعالى:﴿ فبما رحمة من الله لنتَ لهم، ولو كنتَ فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكّل على الله، إن الله يحب المتوكلين﴾ [٢].

مناسبة نزول الآية: مخالفة بعض صحابة رسول الله (ﷺ) لأوامر الرسول في غزوة أحد، ونرى أثر القيادة الحكيمة من قِبَل الرسول (ﷺ) حيث وسعهم بأخلاقه، وقلبه الرحيم [٣]. وتركّز الآية الكريمة على أن الرحمة خلق أودعه الله تعالى في قلب رسوله، ولفظ"رحمة" يخصصها، إلا أن أبا حامد الغزالي يرى أن الآية دالة على"حسن الخلق"[٤] وهي رؤية عامة؛ فحسن الخلق – في الآية – يتفق مع مناسبة النزول، فإن حسن معاملة الرسول لمن خالفوا أوامره لا يقتصر على خلق الرحمة، بل ينصرف إلى أخلاق أخرى، يستلزمها التعامل في مثل هذه

---

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٥٩.

(٢) آل عمران، الآية (١٥٩)

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ج١، ص ٢٠٢.

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الدار العلمية، بيروت، د ت، ج٢،ص٨٢.

المواقف مع العاصين وهم من الصحابة عليهم الرضوان، وهذا ما كشفت عنه الآية الكريمة، ﴿ولو كنت فظًا أو غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ فلفظة:"فظ"– لغةً – بمعنى: قاطع القرابة[1] وبمعنى الغلظة والعنف والجفاء[2]، و"غليظ القلب"هو من لا يتأثر بمن حوله ولا يقيم لهم وزنًا، فقد ربطت الآية الكريمة خلق الرحمة بأخلاق أخرى، تمثل دعائم لمفهوم الرحمة، ومظاهرها وتشمل: لين الجانب، والتواضع للناس ومغفرة زلاتهم.

وهذا ما أكده الزمخشري بقوله:".. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غماً بغم وآساهم بالمباثة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه (ولو كنت فظاً) جافياً، (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم، (فاعف عنهم) فيما يختص بك، (واستغفر لهم) فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم (وشاورهم في الأمر) يعني في أمر الحرب ونحوه"[3].

وبذلك يتسع مفهوم الرحمة قولاً: بالكلام الطيب والاستغفار للمخطئ، وعملاً بالتواضع لهم، وروحًا بالتجاوز عن الزلات، وسلوكًا بالتحدث مع هؤلاء العاصين ومن هم على شاكلتهم، ومشاورتهم في مختلف الأمور.

وفي قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [4].

---

(١) أساس البلاغة، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٢) السابق، ص٣٥٥.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة،١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م، ص٢١٦.

(٤) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

يتوجه خطاب الآية الكريمة إلى قوم مُحَمَّد النبي، يذكّرهم المولى تعالى أن محمدًا – عليه الصلاة والسلام – من جنسهم، أي عربي قرشي، مبلغًا رسالة الله تعالى، ويشق عليه عنتهم (العنت: المشقة ولقاء المكروه) ويعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشقيها، وهو – عليه الصلاة والسلام – حريص على هداية أمته، يبغى النفع الدنيوي والأخروي لها [١]، ولفظة"حريص"– لغويًا – تدل على شدة مراد الشيء والمبالغة في الاستمساك به، وصيانته ابتغاء النفع والخير له [٢]، وهي تشي بدلالة نفسية؛ والمعنى غاية في الدقة، فالرسول يتفطر قلبه على الكافرين من الناس، فما بالنا بالمؤمنين الذين اتبعوه، وما بالنا بقومه ذوي النسب والقرابة إليه.

وقد ختمت الآية الكريمة بوصف خاص للرسول بأنه: رؤوف رحيم، فالرأْفة: الرحمة، وقيل: أَشد الرحمة[٣]، فالكلمتان مترادفتان، كلتاهما تفيد التوكيد على هذه الصفة التي تميز المصطفى وإيضاح معناها. وحين نتأمل في ظواهر خلُق الرأفة والرحمة،"يتبين لنا أن معظم الفضائل التي تتعدى آثارها النافعة للآخرين، ترجع إلى هذا الخلق، فهي إما فروع له، أو موجهة منه"[٤].

إن الآية الكريمة رسخّت مفهومًا جديدًا للرحمة؛ قوامه أن الرسول رحيم بقومه في مكة، وهم ما زالوا على الكفر فما بالنا وهم على الإيمان، فخطاب الآية موجه إلى القوم من قريش، ودلت عليه لفظة"أنفسكم"، ويحزنه ما وجده

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥٩.

(٢) لسان العرب، مرجع سابق،، مادة حرص ج٧، ص١١، ولفظة"حريص"، صيغة مبالغة على وزن فعيل.

(٣) لسان العرب، ج٩، ص١١٢، مادة رأف.

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق – بيروت، ط١، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٦م، ص٤٠٠.

منهم من العنت، ورغم ذلك هو حريص عليهم، وبالتالي فإن رحمته – عليه الصلاة والسلام – لا تقف عند الجانب الشخصي من قول وسلوك فقط، بل يسبقها الجانب الدعوي المتمثل في لهفة الرسول (ﷺ) لإنجاء قومه من عذاب النار، والفوز بالجنات. إنه مفهوم متسع، يشمل الجماعة من قومه في مكة. وقد أكد ذلك ابن حزم بقوله:"فهو عليه السلام ذو رأفة ورحمة بالمؤمنين كما وصفه ربه تعالى، ولم يفرق بين المؤمنين من أهل الحضر والمؤمنين من الجالبين، وكلهم مؤمنون فكلهم في رأفته ورحمته سواء، ولكنها الشرائع يوحيها إليه باعثه عز وجل فيؤديها كما أمر، لا يبدلها من تلقاء نفسه، ولا ينطق عن الهوى"[1].

وفي حالة تكذيب القوم للرسول، فإن رحمة الله أكثر سعة، تحتوي سائر النفوس والخلائق، وإذا كان الرسول مُحَمَّد هو الرحمة المهداة، فإن الله تعالى هو الرحمن الرحيم، يقول تعالى:﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[2]، الآية تبشّر بالرحمة في أوسع صورها، والوعيد في أشده. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [3]، فهذه الآية وصف رباني لرسالة مُحَمَّد – عليه الصلاة والسلام –، فهو رحمة لكل البشر، وهي تتأتى من اتباع الناس للرسول في دعوته،"فمن تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه سيصاب مما كان يبتلي به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف"[4]. ذلك أن دين الإسلام دين الرحمة الشاملة لكل البشر، رحمة في الدنيا؛ بأن يحيا الفرد في أمان نفسي، فهو صاحب رسالة ربانية على الأرض،

---

(١) المحلى، ابن حزم، دار الاتحاد العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٢٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٤٧)

(٣) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧)

(٤) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٢٣٤.

ألا وهي عمارة الأرض، وإعلاء كلمة الله، وهذا يتطلب منه السعي والكد وطلب العلم، دون التخلي عن ثوابت العقيدة الربانية الصحيحة، والاستمساك بالأخلاق والقيم العظيمة مثل قيم العدل والرحمة والتسامح... إلخ، مع إشباع رغباته الحسية بالطرق الشرعية؛ ورحمة في الآخرة: حيث يفوز المرء إذا عاش دنياه ملتزمًا بما وعد به الرسول مُحَمَّد – عليه الصلاة والسلام –، بالجنات العلا والنعيم الأبدي.

ويتفرع عن خلق الرحمة، خلقُ الصبر، بل يكاد الخلقان يكونان وجهين لعملة واحدة، والصبر لغويًا معناه: صبرت على ما أكره، وصبرت عما أحب، وصبرت نفسي على كذا: حبستها. وإنه ليصبرني عن حاجتي أي يحبسني [١] وهو نقيض الجزع [٢]، فالصبر أن يتحمل المرء المشاق النفسية والجسدية، وتبدو المشاق النفسية في التحكم في النفس عند الغضب، وعند الشعور بالظلم، وعند الرغبة في الانتقام، وتحمل عنت الآخرين، وتجاوزهم، ومن ثم العفو عنهم عند المقدرة عليهم، وقد قال جل شأنه: ﴿ ولربك فاصبر﴾ [٣] أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، وقيل: اصبر عطيتك لله عز وجل [٤] وهو الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت."والصبر هو الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة، معركة الدعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النفس وأهواء القلوب ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء. وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا

---

(١) أساس البلاغة، مرجع سابق، ص ٣٤٠

(٢) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، نشر: موقع الوراق الإلكتروني، ج٢، ص٢٢١.

(٣) سورة المدثر، الآية (٧)

(٤) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٢٤.

الصبر الذي يقصد فيه وجه الله ويتجه إليه احتسابًا عنده وحده"[1].

وقد جاءت الآيات القرآنية تعضد هذا الأمر في نفس المصطفى – عليه الصلاة والسلام –، قال المولى تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً﴾[2] فالصبر هنا على ما يقوله مَن كذّبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلاً لا عتاب معه [3] أي: اصبر يا مُحَمَّد على ما يقول المشركون من قومك لك، وعلى أذاهم، واهجرهم في الله هجرا جميلا. والهجر الجميل: هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل:(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)... الآية، وقيل: إن ذلك نسخ [4].

ويُحْمَل هذا النسخ على عدم المواجهة المسلحة بالجهاد، فقد كانت الدعوة المحمدية في العهد المكي، ولكت تظل الآية تدل على عظم التوجيه الرباني بالصبر والهجر الجميل الذي فيه الحرص على الدعوة والهداية للناس.

وقال الله تعالى:﴿ فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع

---

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٦، ص٣٧٥٥.

(٢) سورة المزمل، الآية (١٠)

(٣) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥١٩. وقد ذكر الإمام البغوي أن هذه الآية نسخت بآية القتال. راجع: معالم التنزيل، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: حققه وخرج أحاديثه مُحَمَّد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع. ج٨، ص٣٥٥.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - 2000م،ج ٢٣، ص٦٨٩ ذكر من قال ذلك:حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله:(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) براءة نسخت ما ههنا؛ أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله، لا يقبل منهم غيرها.

الشمس وقبل الغروب﴾[1] وأيضًا قوله جل شأنه:﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ا الأيد إنه أواب﴾ [2]وقوله تعالى:﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾[3]

فالصبر استتبعه التسبيح عند شروق الشمس وعند غروبها. في الآية الأولى: أعقب الصبر سلوكًا عمليًا نحو الكفار متمثلاً في الهجران الجميل وهو ترك الكفار فيما يقولون ويدعون دون معاتبة، وفي الآية الثانية ربط قيمة الصبر بالإيمان والتسبيح، توطيدًا لقلب الرسول وتربية له، وتثبيتًا، وما من تثبيت أعظم من التسبيح والابتهال. إن"الهجر الجميل مع التطاول والتكذيب، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر، والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة، ولعباده المؤمنين، وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده"[4].

والآيتان الثالثة والرابعة: تربط قيمة الصبر وخلقه بأحد أنبياء الله السابقين، داوود عليه السلام، وكيف صبر وتحمل. فالتوجيه بالصبر إيذان بالإعزاز الرباني والعناية الإلهية والأنس الحبيب الذي يمسح مشقات الطريق مسحًا، والوسيلة لهذا الإعزاز قول المولى تبارك وتعالى:﴿ فإنك بأعيننا﴾[5] فالله يرعى عبده ونبيه، برعاية خاصة، أشار إليها التعبير القرآني"بأعيننا"، وهو يضع الرسول في مكانة سامية لم يصل لها غيره، وخاصة أن الخطاب كان موجهًا خصيصًا إليه باستخدام كاف الخطاب في"فإنك".

---

(١) سورة ق , الآية (٤٠)

(٢) سورة ص، الآية (١٧)

(٣) سورة الطور، الآيتان (٤٨)، (٤٩)

(٤) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٧٤٧.

(٥) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٤٠٢.

ويستتبع خلقَ الرحمة خلقُ الصفح، ومعناه اللغوي: العفو والتجاوز والإعراض[1] وهو من المعاني التي تمتد بصلة إلى خلق الرحمة، وقد وردت الآيات القرآنية التي تحض على هذا الخلق العظيم، منها قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل. إن ربك هو الخلاق العليم﴾ [2] والمعنى المقصود: فأعرض عنهم إعراضا جميلا واعف عنهم [3] وهذه شيمة أهل الدعوة، وعلى رأسهم نبيهم الكريم مُحَمَّد، يتسامح مع المسيئين والمتطاولين، ويعفو عن الظالمين، ولا يضمر في صدره نية الانتقام من المعذِّبين له، وقد رأينا موقفه في فتح مكة، حين جمع أهل مكة، وسألهم: ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء [4]. فكان هذا من أعظم المواقف التي عبّرت عن صفاء قلب المصطفى (ﷺ) تجاه من عذبوه وآذوه وطردوه من مكة.

وقوله تعالى:﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ [5] وقد نزلت في اليهود، وتفسيرها: لا تزال يا مُحَمَّد تظهر على خيانة منهم، بنقض العهود وتدبير المكائد، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم، فلا تعاقبهم، واصفح

---

(١) لسان العرب، ج٢، ص٥١٢. والمعجم الوسيط، ج١، ص١٠٦٩.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: (٨٥، ٨٦)

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج١٧، ص١٢٧.

(٤) الرحيق المختوم، بحث في سيرة سيد المرسلين، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، دون طبعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص٣٧٢. والرواية المذكورة واردة في مصادر عدة في السيرة النبوية وصحاح السنة.

(٥) سورة المائدة، الآية (١٣).

عمن أساء منهم [١] وذكر ابن كثير أن الصفح إنما هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل ما أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ولعل الله أن يهديهم [٢].

كما يستتبع خلق الرحمة خلق المعاملة الحسنة، أو بالتعبير القرآني: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ وهذا طبيعي، فإذا صبر الداعية، ورحم وعفا، فإن الوسيلة التالية هي المعاملة الحسنة بالقول والفعل، مصداقًا للآية الكريمة: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ [٣]. فتعبير:"التي هي أحسن"يعني: ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو [٤]. وقد اختلف المفسرون فيمن تقصده الآية الكريمة: هل النبي مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) أم غيره مثل المؤذن أو كل من دعا للخير والإحسان؟ ومن معاني الآية الكريمة: يقول تعالى ذكره لنبيه مُحَمَّد ﷺ: ادفع يا مُحَمَّد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم، ويلقاك من قبلهم. وأيضًا: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم. وقال آخرون: معنى ذلك: ادفع بالسلام على من أساء إليك إساءته[٥]. ومن معانيها: إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك، وصار الذي

---

(١) صفوة التفاسير، ج١، ص٢٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٩. وقد أشار إلى أن الآية منسوخة بقول الله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... }

(٣) سورة فصلت، الآية (٣٤).

(٤) صفوة التفاسير، ج٣، ص ١١٠٦.

(٥) تفسير الطبري، ج ٢١،ص ٤٧١.

بينك وبينه عداوة،﴿ كأنه ولي حميم﴾ كالصديق والقريب. قال مقاتل بن حيان: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وذلك لأنه لان للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليا بالإسلام، حميما بالقرابة [1].

وقد عبّرت السيدة عائشة ﵂ عن مدى سماحة النبي (ﷺ) قالت: ما ضرب رسول الله (ﷺ) بيده شيئًا قط؛ لا عبدًا ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نِيلَ منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهَكَ شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل". وزادت في رواية أخرى:"..ولا خُيّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس عن الإثم..."[2].

بهذه الكلمات البسيطة أوجزت السيدة عائشة مستوى الرحمة الذي كان عليه الرسول (ﷺ) فهو في أسمى صور البشرية، لا يضرب ولا يرفع صوتًا ولا يحُدث صخبًا، إلا في ميدانين: ميدان الجهاد، وهذا يتطلب اللجوء للسيف، فلا قتال دون شدة وبأس؛ وميدان انتهاك محارم الله، من معاص وكبائر، وهذا لا يصمت عنه، فواجبه – بوصفه نبيًا – ألا يسمح بأي تجاوز، وإلا فإن صمته يُعَدُ موافقة منه.

كما أشارت إلى جانب غاية في الرحمة، وهو اختياره (ﷺ) للأمور، فهو يختار الأيسر الأسهل، ما دام ليس إثمًا. المعيار واضح: كل ما هو سهل يوافق الشرع؛ يختاره الرسول الكريم ويكون محببًا إلى نفسه. وكأنه يقرر: مادام السهل موجودًا ومتوافرًا فلماذا نختار الصعب؟! وفي هذا توجيه سام لكل من يلجأ

(١) تفسير البغوي، ج٧، ص١٧٤.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص ٥٩، ٦٠.

للشدة والقسوة في الأمور وقضايا الحياة، مادام الأمر فيه سعة وتيسير، لماذا نشق على الناس؟

الرحمة بالبشر أهم مقاصد الشريعة الإسلامية:

إن الرحمة أساس في القيم والأخلاقيات الإسلامية، فمن لوازم الإخاء في الإسلام: التعاون والتراحم والتناصر، ومن صور التراحم: التكافل المادي والمعنوي، اقتصادي وسياسي، عسكري ومدني، اجتماعي وثقافي، يبدأ بين الأقارب، وتتسع دائرته لتشمل الجيران وأبناء الحي الواحد، ثم تتسع للإقليم ثم للدولة ثم للعالم أجمع[1].

وهي أيضًا أساس في فلسفة التشريع الإسلامي، هذا التشريع الذي يستهدف تهذيب الفرد حتى يكون مصدر خير لجماعته، ولا يكون منه شر لأحد، وفي سبيل ذلك كرّم الذات الإنسانية، كما يستهدف التشريع الإسلامي: إقامة العدل في الجماعة المسلمة، وتحقيق المصلحة الحقيقية العليا للمجتمع المسلم، وهي مصلحة تعم ولا تخص [2] وبعبارة أخرى فإن التشريع يسعى إلى:"تزكية الأنفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته،وتدعيم الروابط الإنسانية وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل"[3] وقد قال الله سبحانه: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم

---

(١) انظر: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ١٦٣–١٦٧.

(٢) انظر: أصول الفقه، مُحَمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربي ن القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ، ص٣٦٤–٣٦٦.

(٣) فقه السنة، سيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٨.

آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١]

وتعد الرحمة مقصدًا أوليًا في غايات التشريع الإسلامي، مصداقًا للآية الكريمة:﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[٢] وفي سبيل ذلك، فإن الرحمة تغلف أحكام الشريعة[٣] فلم تكلف الأحكامُ الشرعية الناسَ ما لا يطيقون، وإنما كلّفتهم ما يستطيعون تأديته باستمرار، لأن المصلحة التي تتحقق فيها لن تكون إلا بالاستمرار على أدائها [٤].

وقد جاء في حديث المصطفى (ﷺ) – الذي يرويه جابر بن عبد الله – قال:"بعثت بالحنيفية السمحة"، وفي رواية أخرى، يقول (ﷺ):"إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة"، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قيل يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة"[٥]

والحنيفية – لغويًا –: المائلة عن الباطل إلى الحق. وقد أطلقت على ديانة إبراهيم – عليه السلام –، والسمحة: السهلة [٦]. إن السهولة لا تعني سهولة العقيدة، بقدر ما تعني يسر التشريع ورفقه بالناس. وقد روي عن أبي محجن الثقفي مرفوعًا:"إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر"[٧].

---

(١) سورة الجمعة، الآية (٢)

(٢) يونس، الآية (٥٧).

(٣) أصول الفقه، أبو زهرة، ص٣٦٢.

(٤) نفسه، ص٣٧٧.

(٥) الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص٨٤.

(٦) لسان العرب، ج١٥، مادة حنف.

(٧) الأشباه والنظائر، رواه ابن مردويه مرفوعًا.

من أبرز شروط الأحكام التكليفية ألا يكون فيها تكليف بما فيه حرج. ويُعرّف الحرج بأنه:"منع وقوع أو عدم بقاء ما أوقع مشقة زائدة عن المعتاد على بدن العبد أو نفسه أو عليهما معًا في الدنيا والآخرة أو فيهما معًا، حالاً أو مآلاً، غير معارض بما هو أشد منه أو بما يتعلق به حق للغير مساو له أو أكثر منه"[1]. وذلك بألا يكون فيها تكليف بالمستحيل وأن تكون معلومة أو في حكم المعلومة وأن يكون التكليف فيه طاعة وعمل صالح [2]

فمفهوم رفع الحرج، مفهوم إنساني بالدرجة الأولى، فاليسر في التشريع الإسلامي متجه إلى إزالة المشقة على العبد، سواء كانت مشقة بدنية أو نفسية، فلا مجال لتعذيب النفس، ولا حرمانها حرمانًا يؤدي لهلاكها، أو عدم إشباع رغباتها الغريزية بطريق شرعي، فمثلاً: الشهوة الجنسية تشبع بالزواج، وشهوة المال تشبع بالسعي لطلب الرزق، واحترام الملكية الفردية، التي هي محصلة كد الفرد في دنياه أو ورثه من ذويه. وبالتالي فإن أي حكم فيه مشقة أو يتسبب في تعب آني أو سابق أو مستقبل للعبد مرفوع كما تقر مبادئ الشريعة الإسلامية.

ومن أبرز القواعد الخاصة برفع الحرج: أن الحرج مرفوع شرعًا، وأن المشقة (في الأمر أو الحياة) تجلب التيسير مثل: السفر والمرض والإكراه والنسيان والجهل وعموم البلوى والنقص في الأهلية، وأن الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات [3] كما أن"القدرة على الفعل شرط التكليف، فلا تكليف

---

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، د. يعقوب عبد الوهاب الباحسين، نشر: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، بغداد، العراق، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص٦٧٠.

(٢) المدخل إلى علم أصول الفقه، محمد معروف الدواليبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥ م، ص٤١٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٤٩.

بممتنع...، والقدرة لا تكن إلا مع الفعل، وأفعال العباد مخلوقة لله، فعند التكليف لا قدرة للمكلف على الفعل فهو مستحيل منه... (إذن) القدرة هي مناط التكليف، وهي عبارة عن سلامة الأسباب والآلات وهي تتقدم العمل قطعًا"[1].

وقد سلك الشارع الحكيم في سبيل ذلك ثلاثة سبل: الأول: هو رفع الحرج ابتداءً، بعدم وضع تكاليف ليست في طاقة الإنسان سواء كان ذلك بمنع التكليف بما لا يطاق أو بعدم التكليف، ما لم يكن أصلاً، أو بإعفائنا من أحكام شديدة وقاسية كانت على الأمم السابقة.

الثاني: رفع الحرج الطارئ لوجود أعذار طارئة صيّرت الحكم الذي كان مقدرًا للإنسان الطبيعي غير موجود بعد طروء العذر مثل: الرخصة في السفر والمرض. فالمسافر يجد عنتًا في سفره، فيجوز له الفطر في رمضان، وقصر الصلاة الرباعية؛ والمريض يعاني الألم، فيجوز له الفطر في رمضان والصلاة جالسًا... إلخ.

فالتشريع مرن، يتعامل مع مختلف حالات الضعف الإنساني، ويتواكب مع المستجد منها وفقًا لقواعد الاجتهاد، وتهدف عينُ الشارع الحكيم دائمًا إلى التيسير، وتسعى إلى رحمة الفرد في سائر شؤون العبادة.

الثالث: رفع الحرج بتدارك ما وقع منه، أي أن حالة المشقة قد حصلت، ولكن الشارع أوجد مخرجًا منها.

فالفرد العاصي، مرتكب الموبقات والكبائر، مفتوح أمامه باب التوبة حتى وقت ما قبل غرغرة الموت، وإذا تاب توبة صادقة، فهو مغفور الذنب، لأن

---

(١) أصول الفقه، محمد الخضري، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٧٧، ٧٨.

الإسلام يجبّ ما قبله. وهناك الكفارات المختلفة التي يمحو الله بها خطايا العبد في الدنيا، مثل: كفارات النذور والجماع في نهار رمضان [١].

فمنزلة رفع الحرج تأتي في المرتبة الثانية في ترتيب المصالح في الإسلام، إنها في مرتبة الحاجيات، وهي مرتبة تالية للضرورات، وسابقة على التحسينيات، والحاجيات هي التي يحتاج إليها الناس، من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى المشقة اللاحقة بفوت المطلوب، وقد لوحظ أن جميع أقسام التشريع يبدو فيها مظهر رفع الحرج [٢]، حتى في الترجيح بين المفاسد، فإن"الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه، وإذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما، أو الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف أو يختار أهو الضررين؛ هذه القواعد التي تفيض بها كتب الفقهاء والأصوليين تفضي إلى مفهوم واحد:"إن الإنسان يختار الأخف ضررًا ومفسدة"وفي نفس الوقت إبعاد الضرر مقدم – شرعًا – على جلب المصلحة [٣].

وهذه الأحكام تتجه إلى المسلمين المكلفين بشكل عام، وبالتالي فإن التراحم البشري مكون أصيل من مكونات المنظور الإسلامي الشرعي، وهذا المكون نابع من سنة المصطفى (ﷺ) التي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، والسنة هي كل قول أو فعل أو تقرير من الرسول.

---

(١) انظر: رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٦٧٠

(٢) منهج فقه الموازنات في الشرع الإسلامي (دراسة أصولية)، د. حسن سالم الدوسي، بحث في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت،العدد (٤٦) ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ص ٣٨٧.

(٣) البحث السابق، ص٤١٠، وفي ميزان الترجيح بين المصالح والمفاسد: إذا كانت المفاسد أعظم من المصلحة اجتنبنا المفسدة، دون اهتمام بفوات المصلحة، وإذا تساوت المصلحة والمفسدة يلزم تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة. ص٤١٦، ٤١٧.

ونستطيع أن نبلور مقومات التصور الإسلامي في بعدها الإنساني في نقاط عدة:

- إن آصرة التجمع الكبرى بين أفراد هذا الكائن (الإنسان المسلم) هي العقيدة...، وجميع الأواصر أو الوشائج الأخرى بما في ذلك رابطة الدم واللغة والجنس والجوار والمصالح الاقتصادية وسائر الأواصر، تصبح معطلة أو ملغاة وهذا ما يميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات السابقة التي اعتمدت أواصر دنيوية للجمع بين أفرادها.
- الإسلام يُبقي في حس المسلم شعوره بالأخوة الإنسانية، فيما يتعلق بالمشاعر والمعاملة الشخصية والعدل والقسط والبر ببني آدم جميعًا، بل بالأحياء جميعًا [1].
- الإنسان ذو فاعلية إيجابية في مصيره كله – وفقًا للمشيئة الإلهية – فاعلية في نفسه، وفاعلية فيما حوله، ومن حوله [2].
- يكاد البر (الخير) في المنظور الإسلامي يشمل الأخلاق الحسنة بشكل عام، وقد سئل النبي (ﷺ): عن البر والإثم، فقال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[3].

فمن حسُنَت أخلاقه، فهذا شخص بار خيّر، لأن حسن الخلق يشمل: الرحمة والمودة والعطف والصدق والأمانة والشجاعة...، وكلها صفات البر،

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص٣٦٢، ٣٦٣ (النقطتان الأولى والثانية).

(٢) السابق، ص٣٦٦.

(٣) صحيح مسلم، تصحيح ضبط: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، الجزء الرابع،ص ١٩٨٢. وجاءت روايته عن النواس بن سمعان ﷺ.

ويزداد الأمر وضوحًا بتعريف الإثم فهو: ما يكره المسلم أن يطّلع الناس عليه. وهذا مفهوم غاية في البساطة والعمق، بسيط لأن كل مسلم يستطيع فهمه؛ عميق لأنه يربط الإثم بالجانب القلبي الذي هو مفتاح النية والعمل.

- ارتباطًا بالنقطة السابقة، فإن البعد القلبي أساس في العلاقة بين الناس، فمتى خلت القلوب من المشاعر السوداء صلحت الجوارح. وعن أنس بن مالك – ﷺ – أن رسول الله (ﷺ) قال: لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"[1].

فقد أورد الرسول (ﷺ) في الحديث السابق ثلاثةَ نواهٍ: لا تباغضوا (عدم الكراهية)،لا تحاسدوا (الحسد تمني زوال النعمة)، لا تدابروا (الخصام والمقاطعة)، وكلها تتصل بأمراض القلوب، ولو تعمقنا أكثر لوجدنا أنها المشاعر الأكثر عداء والأشد دفعًا للعدوان والقطيعة بين البشر، كما أن ترتيبها على هذا النحو يدل على التدرج، فإن كراهية الشخص لبعض الآخرين، تنتج التطلع لما في أيديهم ومن ثم تمني زوال هذه النعم، وقد يكون الحاسد أغنى من المحسود، ولكنها ضعة النفس البشرية المحبة للاستئثار، ثم تتولد المقاطعة والتدابر؛ فالكراهية والحسد أمران لا يُكتمان، فسرعان ما يظهران في الوجه وفلتات اللسان. وقد ختم الحديث بدعم الرابطة بين أبناء المجتمع المسلم:"كونوا عباد الله إخوانًا"، ولا تحل القطيعة بين مسلمين أكثر من ثلاثة أيام.

إن المجتمع المسلم لا تسوده هذا المشاعر البغيضة، ولكنه لا ينفيها، بل يعالج أسبابها، ومظاهرها. وليس الأمر خاص بالمسلمين فحسب، بل يمتد إلى

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٨٣.

باقي المجتمعات غير المسلمة، التي يتعامل معها المسلم، ولكن البداية الحقيقية لنضج مشاعر المحبة والتراحم والصلة الطيبة تكون في المجتمع الملتزم بتعاليم الإسلام وأخلاقه، وإذا اعتاد المرء على هذه الروابط والعلاقات الإنسانية الطيبة، سيكون هذا ديدنه في سائر تعاملاته مع غير المسلمين، داخل المجتمع المسلم أو خارجه.

فالمسلم – وفقًا للتصور الإسلامي – ليس فردًا خاملاً، بل فعّالا، وفاعليته في تطبيق القيم الإسلامية الرفيعة، فهي مسؤولية فردية، يثاب عليها، ومسؤولية جماعية واجبة، وكل هذا يتم في إطار وشيجة العقيدة التي تجمع المسلمين في المجتمع الواحد، وأيضًا تربط المسلم بمحيطه الإنساني الفسيح.

طبيعة الأزمة بين المجتمع المسلم والمجتمع الغربي:

تكمن الأزمة في النظرة التي ابتلينا بها من بعض أبناء جلدتنا من المسلمين، الذين تلقفوا علومهم ورؤاهم من الغرب، فهؤلاء نظروا للإسلام بنفس نظرة الغربي للنصرانية، وفقًا لمدلول مصطلح"Religion"التي تعني الدين عند الغرب، ومفهوم الدين لديهم مفهوم كهنوتي، قائم على الرهبنة والاعتراف، وإعلاء مكانة رجال الدين إلى درجة التقديس، ثم انحدرت مكانتهم بفعل تسلط الكنيسة والبابوات في القرون الوسطى. أما عندنا، فالدين يعني: عقيدة موحدة، وقيمًا سامية، وتشريعًا اجتماعيًا وسياسيًا شاملا، ولكن المتغربين من أبناء المسلمين أرادوا إلباس"الدين"الإسلامي نفس المفهوم الغربي، دون فهم حقيقي لمفهوم الإسلام، فوقعوا في خلط وأخطاء، ونادوا بناء على هذا، بفصل الدين عن الدولة، متخيلين أن ما حدث في بلادنا يشابه ما حدث في الغرب، وأن

التقدم لدينا لن يتم إلا إذا حذونا حذو الغرب [1].

فإذا اعترض البعض أن الغرب تقدّم بقيمه القائمة على فصل الدين عن الدولة، بينما نحن تخلفنا بإسلامنا، وصرنا في مؤخرة الأمم، يكون الرد: نعم تقدّم الغرب، لأن هناك سننًا كونية أهمها: العلم والعمل والسعي في الأرض وهي أسباب نهضة الأمم، تستوي في ذلك الأمم المتدينة وغير المتدينة، فقد اقتضت العدالة الإلهية أن يُرزَق جميع البشر، المؤمن والكافر، وينال كل فرد من الرزق على قدر سعيه في الأرض، وكذلك شأن المجتمعات الساعية للنهضة والتحضر، وهذا ما ينطبق على الحضارة الأوروبية الغربية، فقد سعوا منذ فجر عصر النهضة إلى الاستفادة من علوم المسلمين، فترجموا كتبهم، ودرّسوها، واجتهدوا في الاختراع والاستكشاف، في وقت بدأ المسلمون يصابون بالإنهاك، وتعتريهم مظاهر الضعف الحضاري من تفرق وتشتت، وخلافات مذهبية، وصراعات سياسية، وغزو المغول والصليبيين لهم، بجانب استكانة الشعوب وغياب رغبتها في النهوض والتطور. فانطبقت عليهم سنّة الله في الأرض، ضعفوا هم، وتقدّم غيرهم، فالأرض ميدان فسيح لكل البشر، فليتقدم من يتسلح بالعلم وينتهج العمل. إن السنن الربانية مفهوم شامل لكل الناس، وتعرّف بأنها:"وقائع الله التي جرت عادته بإنزالها بعباده على أعمالهم الاختيارية التي استمرأوها ولم يتحولوا

(١) انظر: الإسلام والعالم المعاصر، بحث تاريخي حضاري، أنور الجندي، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧. ويضيف المؤلف رحمه الله:"الدولة الإسلامية ليست دولة اكليريكية كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب...، وإن كلمة الدين (من المنظور الإسلامي) لم تعش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا بمدلولها الغربي، وقد ضل الكماليون (نسبة إلى كمال أتاتورك) في فهم الإسلام فسلكوه مسلك الدين المسيحي وأصدروا حكمًا واحدًا عليهما. ص١٧.

عنها"[1] ومن أبرز سمات سنن الله أنها: ثابتة ودائمة لا تعرف زمانًا ولا مكانًا ولا شعبًا، وأنها مضطردة الحدوث مع سائر الأمم [2] فما ينطبق على المسلمين منها، ينطبق على غيرهم.

ونرد على سؤالهم المهم بسؤال أهم: وهل الحضارة الغربية المعاصرة نهجُها نفس نهج حضارة الإسلام؟ وهل تحلّى الغرب في قيادته للعالم بنفس قيم حضارة الإسلام؟ والجواب نرصده في مظاهر قديمة جديدة: احتلال الغرب الدول وإفناء أهلها، ونهب ثرواتها، والتعامل بمنظور المصلحة والمنفعة على حساب القيم، وهذا لا يمنع من أن في الغرب قيما إنسانية أصيلة، ولكنها ذات محدودية في صناعة القرارات السياسية والاقتصادية والعسكرية، وأبرز شاهد على ذلك قضية فلسطين: شعب يطرد من أرضه، لتحل محله أشتات من اليهود المتفرقين في العالم تحت دعاوى أنهم ظلموا على مر التاريخ وتعرضوا للإبادة في العصر الحديث (مجازر هتلر وهناك شكوك في الأعداد والوقائع)، ناهيك عن دعاويهم الدينية في أرض فلسطين (أرض الميعاد). وقد انطبقت سنة الله على الغرب الأوروبي أيضًا، فقد بدأت دول أخرى في الصعود والمزاحمة في قيادة العالم مثل: الصين ودول النمور الآسيوية وغيرها [3].

---

(١) مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، د. صديق عبد العظيم أبو الحسن، بحث بمنشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، العدد ٣١، السنة ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ص٦٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٨.

(٣) تذكر التقارير السكانية إلى تراجع أعداد السكان في الدول الغربية الأوروبية بشكل عام، وباتت هذه الدول تعاني من تقدّم متوسط الأعمار لسكانها، فأحدث الإحصاءات الصادرة عن الأمم المتحدة تشير إلى انخفاض مطرد بدءًا من عام ٢٠٢٥وما فوق في دول العالم المتقدم (العالم الأول والثاني)، حيث ستفقد اليابان وروسيا وأوروبا ما بين نصف إلى ثلثي عدد

ويلفت بعض الباحثين النظر إلى أن قيمة الرحمة تكاد تكون سمة عامة للمجتمع المسلم وتشكّل عنصرًا إيجابيًا في الثقافة العربية الإسلامية، ونراه دائمًا في حياتنا اليومية، فالإحسان والتصدق ظاهرة على مستويات عديدة: بسيطة ومركبة، وفي مختلف الطبقات الاجتماعية. ولكن هناك ملاحظة مرصودة: إن قيمة الرحمة عالية في الممارسات البسيطة، ولكن يضادها تدني قيمتي العدالة والمساواة بين الناس [1]. وهذا ظاهر واضح، وربما نراه في شيوع ظاهرة الواسطة والمحسوبية، والاعتداد بالعلاقات القبلية والمكانة الاجتماعية أو السياسية أو المالية في المجتمعات العربية والمسلمة على حساب الشريعة والقانون، وهذا أيضًا يأخذه الغرب والعلمانيون على المجتمعات المسلمة.

وللرد على ذلك، لابد من إيضاح أمر مهم: إن الإسلام لا يقاس – بوصفه دينًا وشريعة وأخلاقًا – على الممارسة الحياتية لأبنائه، لأن هذه الممارسة تخضع للهوى الفردي، والقيم السلبية العائدة إلى أسلوب الفرد وبيئته ومكوناته الاجتماعية. وبالتالي: فلنفصلْ عند تقييمنا للأمور بين الإسلام (نظريًا)، والتطبيق الحالي، خاصة أن روح الشريعة – بشكل كامل – غائبة عن كثير من القوانين في البلاد العربية. أما ارتفاع قيمة الرحمة، وتدني قيمتي المساواة والعدالة، فهذا

السكان، وهذا ما يدل عليه متوسط العمر السكاني الذي أصبح خمسين سنة هذا العام بدلاً من أربعين سنة قبل سنوات؛ وهذا عائد – كما يقول التقرير – إلى العزوف عن الزواج والإنجاب وانتشار الأمراض الاجتماعية مثل: الترف الشديد وغياب قيم الأسرة والدين عن الحياة الفردية. ويؤكد التقرير أن كل قوة صاعدة في التاريخ تتوسع ديموغرافيًا بجانب نهضتها العلمية والعملية. انظر: خطر العالم الجديد: الانكماش السكاني، ترجمة: إيمان عطية (عن تقرير في جريدة Financial Times) نشرته جريدة القبس الكويتية، عدد ٢٢ /٢ / ٢٠٠٧ م.

(١) انظر: أمراض المجتمع: الأسباب، الأصناف، التفسير، الوقاية والعلاج، د. خليل وديع شكّور، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ص٨٢.

لابد من الاعتراف بوجود أشكال وممارسات منه، وهذا عائد إلى طبيعة بعض المجتمعات العربية والإسلامية التي تشتد فيها النزعة القبلية والعرقية على حساب القيم الدينية، واستغلال البعض لمناصبهم وسلطاتهم في التستر على فساد وانحرافات، ولكنها ظواهر فردية وليست سمات عامة، وتختلف من قطر إلى آخر، وكل حالة تقدر بقدرها، وتدرس في ضوء ظروفها وأسبابها الاجتماعية. ولو قسنا الأمور على المجتمعات، فإن المجتمعات الغربية المتقدمة حضاريًا وماديًا وتقنيًا فيها الكثير من المآخذ والسلبيات التي تنخر فيها، وتطعن في رسالتها الحضارية، فهناك دول عظمى ترفع شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي تمارس داخليًا أقسى حالات التمييز العنصري بين ذوي البشرة البيضاء والملونين، أوبين أبناء المجتمع الأصليين والوافدين المتجنسين. وهذا كائن لديهم في بعض القوانين الصادرة ضد الأقليات والمهاجرين من المسلمين وغيرهم، وموجود أيضًا في الممارسات الاجتماعية اليومية من أبناء الشعوب المتقدمة، ولدى رجال السياسة والحكم عندهم: ناهيك عما ترتكبه هذه الدول العظمى من مظالم تجاه الشعوب الضعيفة المغلوبة من: استنزاف الثروات واحتكارها عبر الشركات المتعددة الجنسيات، والتآمر ضد الحكومات التي تنتهج سياسات وطنية تختلف عما تريده الدول الكبرى. إن القائمة طويلة، ولا مجال لحصرها ومناقشاتها، ولكن من المفيد التأكيد على أننا نؤيد كل جهد إنساني، علمي وثقافي، يسعى إلى نشر ثقافات المحبة والتراحم والمشاركة والمساواة والعدالة، وهي قيم إنسانية خالدة، وسامية، ومشتركة بين الشعوب البشرية جمعاء. ويتميز الإسلام بكون شريعته داعمة هذه القيم الإنسانية، وتجعلها ضمن منطلقاتها التشريعية، وبناءً عليه، لا تصبح هذه القيم مجرد ترف ثقافي أومكملاً اجتماعيًا، بل هو مكون ثابت في العقيدة والدين والقانون المستمد منهما.

فالتشريع الإسلامي يعتمد على أصول تجعله عامًا شاملاً لكل أحداث

الحياة ووقائعها المتصلة بالإنسان، فهي تتعامل مع البشر، كل البشر، من منطلق إنساني رحب، دون تفرقة عرقية أو شعوبية أو دينية. كما يعزز خصائص الإنسانية في التفكير والعمل، ويعتبر فيما يحيط به من مؤثرات البيئة العامة والخاصة، فلا يتجاهلها، بل يسعى إلى تهذيبها وتطويعها من أجل ما هو خير للبشر[١]. والوحدة الإنسانية أصل من الأصول التي تمد التشريع الإسلامي في عمومه بروح الترابط الأخوي بين أبناء البشرية كلها [٢] وتؤكد الشريعة الإسلامية على أنها سابقة للقوانين البشرية في القول بالوحدة الإنسانية في نشأتها العليا، وأن تيارها الإنساني حقيقة من حقائق الوجود البشري، وهي أن خلافة الله على الأرض هي المنطلق الأول للمسلم في حياته، وتتحقق خلافة الله بإقامة العدل والإصلاح لطرائق الحياة وإخراج كنوز الطبيعة، وهي تشعر الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده، فهو بحكم إنسانيته مخلوق كريم، مفضل على كثير من خلق الله [٣]. وهذا معنى يشمل كل إنسان في الوجود، لا يخص فردًا دون فرد، ولا أمة دون أمة، ولا شعبًا دون شعب، فالناس في الواقع سواسية في حقيقة الإنسانية، ولا يشيع التفاوت بينهم إلى بسبب الانحراف عن هذه الحقيقة التي تجمعهم [٤].

ومن المنظور الحضاري، فقد قامت حضارات عدة في شتى بقاع العالم، وكلها قامت على عوامل عدة، في غالبيتها عوامل بشرية ومادية، وكثير منها تحلل، واندثر، ثم خرجت حضارات أخرى مستفيدة من الحضارات السابقة،

---

(١) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام، مُحَمَّد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، المجلد الأول، ص١٣٩.

(٢) السابق، ص١٣٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٥٢

(٤) المرجع السابق، ص١٥٣.

ولكن سائر الحضارات قامت على أسس متشابهة وعوامل جغرافية أو بشرية أو مادية، ثم اندثرت هذه الحضارات، وسقطت أسسها، إلا:"حضارة الإسلام لأن أساسها ليس عنصرًا بشريًا يناله الضعف والبلى، ولكن أساسها العقيدة، وهي لا تزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها اللغة العربية، لغة القرآن، وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع...؛ لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها"[1].

وفي الفصول التالية، سنقوم باستعراض تفصيلي لفلسفة الرحمة لدى الرسول مُحَمَّد (ﷺ)، في الجوانب النظرية أي ما يتعلق بأقواله وإرشاداته، وفي الجوانب العملية، أي ما يتعلق بتطبيقاته وسلوكه المعاش.

(١) الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص ٢٨٠.

الفصل الثاني

جوانب الرحمة بالبشر
في سنة النبي محمد (ﷺ)

المبحث الأول

فلسفة الرحمة بالبشر في سنة النبي محمد (ﷺ)

يتعمق مفهوم الرحمة في سنّة المصطفى (ﷺ)، فيتخذ أبعادًا كثيرة، تتصل بتعميق مفهوم الرحمة ذاته الذي هو من نعم الرحمن وصفاته، ويتعداها إلى الإرشاد إلى مواقف الحياة المعاشة، في القول والسلوك. ونستطيع أن نحدد هذه الأبعاد في المحاور الآتية:

- رحمة المصطفى بالبشر عطاء من الرحمن (جلّ وعلا):

فصفة الرحمة علامة بارزة في أخلاق المصطفى (ﷺ)، وقد بانت في أكمل صورها في سلوكياته مع الناس: مسلمين وغير مسلمين، وهي سمة لا تنصرف إلى ممارسة فردية ميزت النبي (ﷺ)، وإنما هي عطاء من الله إلى نبيه العظيم، كي يكون رحمة للعالمين، وكما قال النبي (ﷺ):"أدّبني ربي فأحسن تأديبي"، فعندما نتكلم عن سمة خلُقية، فإنما نتكلم عن خلُق رباني وقرآني، جسّده الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكما نعتته السيدة عائشة وصحابته عليهم الرضوان أنه كان قرآنا يمشي على الأرض.

يروي أبو هريرة – رضي الله عنه –:"سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا،

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"[1].

يربط المصطفى (ﷺ) في هذا الحديث بين الرحمة الصادرة من البشر، وبين الرحمة الربانية، وهذا منسجم مع اختصاص الله تعالى بصفة"الرحمن الرحيم"، أي الرحمة المطلقة التي لا حدود لها وفق المشيئة الربانية. وبالتالي يترسخ في وجدان المسلم أن قيمة الرحمة مشتقة من الرحمن، وقد جمع الرسول في حديثه البعد العددي الذي لا نملك إلا أن نصدقه على الحقيقة وليس على المجاز، وهو يعبر عن عظم الرحمة الربانية وهوان الرحمة البشرية مهما اتسعت، إنها نسبة ١/١٠٠.

وفي رؤية أخرى: أن"مائة جزء"عدد خاص يماثل عدد درجات الجنة، والجنة هي محل الرحمة، فكأن كل درجة توازيها رحمة، ومن نالته رحمة واحدة، كان أدنى أهل الجنة منزلة...، وتكون رحمة الدنيا في الالتزام بالقرآن والصلاة وطيب الخلق وغير ذلك مما أنعم الله به، فكيف بظنك بمئة رحمة في الدار الآخرة؟[2]

---

(١) صحيح البخاري (المسند من أحاديث رسول الله ﷺ وأيامه)، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وترقيم وتصحيح: محب الدين الخطيب، مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، دون تاريخ. (ذكر أن الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٨٠م عن المطبعة السلفية). ج٤، ص٩١، ٩٢.

(٢) انظر: فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد للبخاري، تأليف: فضل الله الجيلاني، نشر وتوزيع: المكتبة الإسلامية، حمص، سورية، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م، ج١، ص١٨٠، ١٨١. وزاد مسلم: فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة (رحمة الدنيا)، فتكون عند الخلق مائة رحمة يوم القيامة. ص١٨١

وقد خصّ – الرسول (ﷺ) الفرَس بالذكر لأنها أشد حذرًا من أن يصيب ولدها الضرر من وقع حافرها عليه في الحيوانات المألوفة، التي يرى المخاطَبون – من العرب – حركاتها مع أولادها، مع خفته وسرعته في التنقل[1].

- هداية البشرية للإسلام ذروة الرحمة بالبشر:

لا مجال للحديث عن الرحمة بالبشر، دون الوقوف عند الغاية العليا من نبوة الرسول (ﷺ)، فغايته هداية الناس، من الضلال إلى الهدى، وإنجائهم من النار إلى الجنة، تلك الرحمة في صورتها الكبرى؛ إعتاق الرقاب من النار، وأن تتلذذ القلوب بحلاوة الإيمان، وتؤمن بوحدانية الله سبحانه وتعالى، ومن ثم تلتزم وتطبق تعاليم الإسلام، التي هي مفتاح سعادة الدارين: الدنيا والآخرة، فلا حديث عن إشاعة التراحم بين الناس – من المنظور الإسلامي –، والبشر لا يزالون في همجية الجاهلية، وعنفوان الشهوة والتسلط الفردي والقبلي، ولا حديث عن الرقي الأخلاقي، والقلوب مغلقة، والعقول مصمتة.

وفي هذا السبيل، كان الرسول (ﷺ) ساعيًا إلى هداية الناس، متحملاً العذاب والتضييق والنفي في سبيل دعوته، يعرّض نفسه وأتباعه إلى القسوة البشرية على أيدي كفار مكة في سبيل نشر رسالة الله العظمى، فإذا هلكت العصبة المؤمنة المتمسكة بدين الإسلام، فإن وجود الإسلام نفسه في خطر. وهذا ما جعل الرسول يجاهد مع أصحابه في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة من أجل تدعيم وتثبيت الإسلام في القلوب، فإذا ثبتت العقيدة، ثبتت الأخلاق القويمة.

إن الفطرة الرحيمة هي التي حملت الرسول (ﷺ) على أن يكافح طيلة حياته، دون فتور أو تراخ أملا في هداية الإنسانية، وإسعادها، وكان يشق على نفسه في

---

(١) السابق، ص ١٨١.

سبيل ذلك، ويحملها ما لا تطيق [1]، وقد قال المولى تعالى مخاطبًا إياه:﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [2] أي لا يتمزق فؤادك حسرة من أجل الكفار والمشركين، تطمع في هدايتهم، وهم عنك منصرفون، وفي عداوتك مجتمعون.

لقد كان المبعوث رحمة للعالمين (ﷺ) حريصًا على اكتساب القلوب، وتأليفها، لا ينظر إلى المطامع والمكاسب السياسية، بل عينه على الأفئدة؛ ومدى إيمانها، حالمًا بنجاتها من هوة النار، بل يخشى أن تحترق الأنامل بألسنة جهنم.

ومن أجل هذا الهدف، أراد (ﷺ) أن يشعر المسلمون بالتعاطف والتراحم والتواد منه أولا ومن الصحابة والمسلمين ثانيًا [3]. ذلك لأن الرحمة بالناس هي أول ما ترصده الأعين في تعاملات الرسول والصحابة مع الكفار وحديثي العهد بالإسلام.

ولننظر إلى لفظة "الصحابة" التي اتصف بها كل من شاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وقد وصل تعدادهم بالآلاف، صحيح أنهم متفاوتون في الإيمان والسبق والجهاد والدعوة والذكاء والبأس، ومقدار القرب من الرسول، ولكنهم حرصوا كل الحرص على نيل شرف الصحبة الكريمة بالرسول (ﷺ).

إن هذا المعيار الذي ربط الرسول بمن حوله من البشر،معيار غاية في السمو الأخلاقي، يحقق المفهوم الحقيقي للرحمة بالبشر، فهم أصحابه، ومن قبل إخوانه في العقيدة والدين، فأسقط الرسول (ﷺ) حاجزًا نفسيًا واجتماعيًا كان قائمًا في بيئة جاهلية ترفع النسب القبلي لمكانة سامية، وتعتد بذوي المكانة والرياسة، والرسول وهو من هو في النسب الشريف الذي يعود إلى إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما الصلاة والسلام – وإلى أفضل بطون قريش، وأصبح في المدينة زعيمًا وقائدًا

---

(١) الرسول (ﷺ)، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٨٢.

(٢) سورة فاطر، الآية (٨).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٨٣.

للدولة المسلمة، ومن قبل نبيًا وهاديًا، ولكنه مع أصحابه يقول لهم:"تآخوا في الله أخوين أخوين"بعد هجرته للمدينة المنورة، ثم يجعل علاقته مع جميع الناس علاقة صداقة حقيقية. يقول عباس العقاد إن محمدًا (ﷺ) عطوف ودود مع أصحابه، وإنما"تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رُزِقَ من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة الذوق ومتانة الخلق وطبيعة الوفاء"[1]. لننظر إلى هذه الصفات: إنها صفات الصداقة الحقيقية التي يندر وجودها كاملة بين الناس.

وتتم الصداقة بالعاطفة الحية والذوق السليم، والخلق المتين وقد كان مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) في هذه الخصال جميعها مثلاً عاليًا بين صفوة خلق الله. فقد كان عطوفًا يرأف من حوله، ويودهم ويدوم لهم على المودة طيلة حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام [2]. و"هذه العاطفة الإنسانية التي اتسعت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها، لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلاً، ويتمثل فيما يرجع إلى علاقات النبي بالناس، في رعاية شعورهم أتم رعاية، وأدلها على الكرم والجود"[3].

هذا هو مُحَمَّد الرحمة المهداة الذي دلّ تاريخه كله على أنه"كان أوسع الناس صدرًا، وأرحبهم نفسًا، وأعفهم لسانًا، وأرعاهم للصحبة...، أما جوده وشجاعته وحياؤه وحسن معاشرته وقوة احتماله وشفقته ورحمته وتواضعه وعدله ووقاره وزهده وتقواه، فقد كان من كل ذلك مضرب الأمثال، وهذا كله من أخص مميزات النبوة في رأينا؛ فإن الناس العاديين قلَّ من يبلغ المثل الأعلى في

---

(١) عبقرية مُحَمَّد (ﷺ)، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م، ص١٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٢٢.

(٣) السابق، ص١٢٤.

خصلتين أو ثلاث من هذه الخصال، فبلوغ هذه الدرجة السامية في جميعها، مما لم يشاهد في واحد من جميع أفراد النوع البشري في جميع أدوار التاريخ، وتوافرها في مُحَمَّد قد دل عليه التواتر فلا يمكن التشكيك فيه"[1].

فعند المقارنة بين شخصية مُحَمَّد وأي عظيم من البشر، على مستوى الخلق والثبات والعطاء والأثر التاريخي، تميل الكفة دون نقاش لصالح النبي مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم)، فقد ثبت نفسيًا أن تكامل النفوس لا يوجد على المستوى العملي في الناس، ولكن هناك أشخاص ذوو أخلاق عالية وآخرون دون الأخلاق، ولكن من هو ذوو الخلق العالي يعتريهم النقص في خلق أو أكثر، أي لا يوجد تكاملية بنسبة مئة في المئة لكل الأخلاق لديهم، ولكن قد يتميزون في خلق، ويقلون في خلق آخر. إلا النبي مُحَمَّد الذي حاز النسبة الكاملة في التقدير البشري للأخلاق، ومنها بالطبع خلق الرحمة بالبشر، الذي هو أحد أخلاق الكمال.

وفي شهادة لأحد المستشرقين يقول:"كلما فكّرنا في تاريخ مُحَمَّد وتاريخ أوائل الإسلام، كلما تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد، فأتاحت له فرصًا للنجاح...، فلو لم يكن نبيًا ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله؛ لما كتب فصلاً مهمًا في تاريخ الإنسانية، رجل هو من أعظم رجال أبناء آدم"[2]. كما أن عظمة مُحَمَّد (ﷺ) جاءت من كونه أوتي – أولاً– موهبة خاصة على رؤية المستقبل، فكان للعالم العربي بفضله، وبفضل الوحي الذي يُنزَّل عليه حسب رأي المسلمين أساس فكري، حُلَّت به الصعوبات الاجتماعية والسياسية المختلفة،

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مُحَمَّد فريد وجدي، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) مُحَمَّد في المدينة، مونتجومري وات، ترجمة: شعبات بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ت، ص٥١٢.

وثانيًا: إنه رجل دولة حكيم، وثالثًا: رجل إدارة بارع [1].

ويبرهن"وات"على صدق نبوة مُحَمَّد (ﷺ) في أن شخصية مُحَمَّد لم تنحط بعد الهجرة، فقد قيل كثيرًا إن السلطة تفسد، وأن السلطة المطلقة تفسد أخلاقًا عظيمة، ولكن – سيد المدينة – كان رجل عصره، كما كان كذلك شأن الداعي المضطهد في مكة، واتفق معاصروه على أنه كان رجلا فاضلا مستقيمًا، مصلحا اجتماعيًا وناشرًا القيم الأخلاقية [2].

إن الشهادة السابقة تحلل شخصية النبي (ﷺ) ويبرهن"وات"من منظور عقلاني، لا يستبعد العامل الإلهي المؤيد للنبي، بقدر ما ينظر بمعايير المؤرخين التي تقيّم الأشخاص حسب عطائهم، وتأثيرهم السياسي في مجتمعاتهم وفي المجتمعات التي حولهم. وقد ذهل"وات"من أمرين: شخصية مُحَمَّد (ﷺ)، وشخصية من حوله من أصحابه، وقد استطاعوا تغيير مجرى الأمور ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل في العالم كله حتى وقتنا الحاضر، ويكفي أن محمدًا أقام دولة راسخة المعالم واضحة الكيان في أقل من ثلاث وعشرين سنة، منذ بدء دعوته، شملت الجزيرة العربية كلها ثم واصل أصحابه من بعده المسيرة ليسقطوا حضارة ودولة عظيمة الشأن؛ فمزقوا مُلْكَ كسرى في فارس (إيران والعراق)، وقلّصوا حدود امبراطورية الروم في المشرق العربي إلى ما دون حدودها في أوروبا. ووفقًا للمنظور العقلاني التاريخي، فإنه لا توجد أمة تمددت واكتسبت هذه الرقعة الجغرافية الضخمة، وأقامت حكمًا على قاعدة دينية وشرعية عظيمة في أقل من مئة سنة (خلال القرن الأول الهجري)، إلا الإسكندر الأكبر، وقد تفككت امبراطوريته بعد وفاته بين قادته.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٥١٠.

(٢) السابق، ص٥٠٧.

ويتملكنا العجب من ذكر "وات" إعجابه بمن حول مُحَمَّد (ﷺ) من صحابته، فهؤلاء حملوا أخلاق الرسول وتخلقوا بها، فكان نعم الخلف لخير سلف، وهؤلاء نشروا الإسلام وأعلوا رايته العقدية والخلقية بفضل تربيهم في مدرسة الرسول، ثم أعدّوا أجيالاً من التابعين وتابعي التابعين، كانوا سائرين على النهج الإسلامي حتى أتت الدعوة ثمارها بملايين الأفئدة التي أحبّت الإسلام هداية وخلقًا، فدخلت مؤمنة دين التوحيد، أو ظلت على عقائدها السابقة وسعدت وهي تعيش في حمى الإسلام وعزه.

- الرحمة شيمة المؤمنين:

المجتمع المسلم مجتمع متراحم، لا يعرف الأنانية والأثرة، ولا ينزوي فرد غني بماله خشية الفقر إذا بذله، فالمال مال الله، والمؤمنون مستخلفون فيه.

عن النعمان بن بشير – ﷺ –، يقول: قال رسول الله (ﷺ): ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم، كمثل جسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"[1].

الفئة المؤمن كالجسد الواحد، إذا مرض عضو منه أو أصيب موضع، انتشر الألم في الجسد كله، الرابط في الجسد الواحد: دماء وأعصاب وأحاسيس. والرابط بين أبناء المجتمع المسلم: عقيدة يتبعها تراحم، وتواص بالمعروف والتواد. وهذا مصداق للآية الكريمة:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [2].

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٣.

(٢) سورة التوبة، الآية (٧١)

وفي الحديث الشريف عن أبي موسى، عن النبي (ﷺ) قال: المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. ثم شبّك بين أصابعه"[١].

فعلاقة الإيمان ليست علاقة قلبية فقط، بل قلبية وجوارحية، فالمؤمن محب أخاه في العقيدة، وفي نفس الوقت لا يتخلى عنه في محنة أو حاجة.

إن علاقة الأخوة هي الرباط المتين الذي أقامه الرسول بين الصحابة الكرام، وقد أقام (ﷺ)"الإخاء الكامل، الإخاء الذي تمحى فيه كلمة"أنا"ويتحرك فيه الفرد بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كيانًا دونها، ولا امتدادًا إلا فيها. ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل الرسول هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملا يرتبط بالدماء والأموال؛ لا تحية تثرثر بها الألسنة"[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الإخاء السابق إنما هو مفهوم متعمق الجذور بالإسلام، نابع من بيئة سامية، فالصحابة الأولون ارتقوا بالإسلام في نواحي حياتهم كلها، فكانوا عباد الله إخوانًا، ذلك لأن محمدًا كان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه وداروا في فلكه رجالا عُرِفوا بالنجدة والوفاء والسخاء [٣].

ومن مفهوم الإخاء وما يستتبعه من سلوكيات، يؤدي إلى ترسيخ "الإيخاء" وهو عملية نفسية اجتماعية، تتعلق بالسلوك الذي يراه الفرد في المجتمع المحيط به، فإذا

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٦.

(٢) فقه السيرة، مُحَمَّد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ١٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨١. ويضيف الشيخ مُحَمَّد الغزالي:"إن تنويهنا بقيمة التسامي النفساني في تأسيس الإخاء، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظامًا يؤخذون= = بحقوقه أخذًا، فإذا لم يؤدوها طوعًا أدوها كرهًا، وذلك كما يجبرون على العلم والجندية وأداء الضرائب. ص١٨١.

رأى سلوكيات وقيم حميدة، فهو سينتهجها، ويشعر بالذنب إذا تجاهلها، فمن أبرز فوائد"الإيحاء"من المدلول النفسي ذلك التأثير الاجتماعي الذي يتحقق بصورة غير مباشرة، رغم اختلاف العوامل الاجتماعية والظرفية والشخصية[1].

-الرحمة لا حدود لها:

وهذا مفهوم إسلامي صرف، لأن الرحمة من الله الرحمن، ورحمة الله لا حدّ لها، ولا يختص بها فرد دون آخر، ولا مخلوق دون آخر.

فقد لام الرسول (ﷺ) أعرابيًا، دعا، ولكنه اختص نفسه والرسول فقط بالدعاء، حيث يروي أبو هريرة – رضي الله عنه –:"قام رسول الله (ﷺ) في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلّم النبي (ﷺ) قال للأعرابي: لقد حجرتَ واسعًا. يريد رحمة الله"[2].

فالنفس البشرية تميل إلى الأنانية، ليس في الأمور المادية فحسب، بل في النفسية والعقدية أيضًا، وهذا ما وسوست به نفس الأعرابي، فهو محب للرسول الذي هداه للإسلام، ومحب لنفسه، فدعا أن تكون الرحمة له وللرسول فقط. وسرعان ما نبهه الرسول عقب التسليم من الصلاة:"لقد حجرتَ واسعًا"، أي حدّدتَ الرحمة وضيقتَها، وهي لا آخر لها. والجملة المُقَالة بسيطة، غير مباشرة ذات عمومية في دلالتها، ولكن من معانيها: محبة أبناء المجتمع المسلم، وتمني الرحمة للجميع، فهم إخوانه في العقيدة، سيتراحمون معه في أمور الدنيا، وكما سيدعو الأعرابي لهم، سيدعون هم له.

---

(١) راجع: موسوعة علم النفس، رولان دورون، فرانسواز بارو، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، مجلد ٣، ص١٠٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٣.

وفي المقابل، فإن من يقسُ على الناس، يُقسَ عليه. فعن جرير بن عبد الله، عن النبي (ﷺ) قال: من لا يرحم لا يُرحَم"[1]

والصيغة عامة، غير مختصة، ولكنها متوجهة بالخطاب إلى كل إنسان: من لا يرحم الآخرين، لا يرحمه الآخرون، وإذا قسا على فرد أو فئة، ظانًا الضعف منهم، فإن الله سيقيّض من لا يرحمه. وشواهد التاريخ والحياة كثيرة فيمن قسا وظلم، فسلط الله عليه من أذاقه نفس الكأس وأشد.

ومن المهم التأكيد على أن من أسباب سعادة المرء في الدنيا أن يكون فردًا ذو دور اجتماعي فعال، من خلال مساعداته ومعاملاته الحسنة للناس، فمن ينشر قيم التراحم الاجتماعي ينعم بمحبة الناس ورضاهم، فيشعر بالتفاؤل والرضا، ويمحو من قلبه القلق والسخط، ويتعمق لديه الصبر والشكر، فهو يرى مآسي الناس، فيحمد الله على ما أعطاه من نعم، ويصبر على ما أصابه من بلاء، وبالتالي فإنه سيكون أكثر عفوًا وتسامحًا في حياته، وهذا له الأثر الكبير في صحته الجسدية وتحقيق النعيم النفسي والسكينة والأمان [2].

- الرحمة في كل معروف:

ربما يظن البعض أن الرحمة تقتصر على مظاهر العطف على الفئات الضعيفة في المجتمع، ولكن المفهوم الإسلامي يوسّع مداها، لتشمل كل عمل خيّر طيب، والمعروف نقيضه المنكر، فالمعروف في جوهره أداء البر للناس، والشخص البار: عابد لله، مخلص في عمله، ساع للخير في كل وقت، فلا ترتبط

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٤.

(٢) انظر: تنمية الصحة النفسية في الإسلام، د. كمال إبراهيم مرسي، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ١٤، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، ص٣٣١- ٣٣٣.

الرحمة لديه بتبرع مالي أو عطف وقتي، بل تلازمه في سائر شؤونه، في صحوه ونومه، وقد رأينا في شعوب أخرى كيف أن تجار المخدرات المتاجرون بدماء الناس يتصدقون للمؤسسات الخيرية، أو تجار السلاح المتعيشين على إزهاق الأرواح، وزيادة الجرحى والمشردين والمعدمين يساعدون الضعفاء، إنهم يفعلون ذلك دون وخز من ضمير، يقدمون المساعدة من دماء ضحاياهم، ليتهم يمتنعون عن شرورهم، وستنعم البشرية براحة كبرى، ولكنهم يعيشون في انفصال: تبرعات خير، من أعمال شر.

عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما –، عن النبي (ﷺ) قال:"كل معروف صدقة"[1].

الصدقة: ما يبذله المسلم تطوعًا لله تعالى نحو العباد والمخلوقات، وهي تتمايز عن الزكاة في أنها تطوع من الفقير أو الغني دون قيد مكاني أو زماني أو مادي؛ أما الزكاة ففرض على الغني فقط الذي امتلك النصاب في المال أو التجارة أو الزرع أو الأنعام... إلخ."فليست الصدقة قاصرة على نوع معين من أعمال البر، بل القاعدة العامة أن كل معروف صدقة"[2].

فمفهوم الصدقة يشتمل ثلاثة أبعاد: بعد ذاتي من المتصدق لأنه يتطوع من ذاته لأداء الصدقة، وبعد في نوعية الصدقة حيث يشمل: المادي، والقولي، والفعلي، وبعد متلقي الصدقة وهو كل من في المجتمع، قريب للمتصدق أو بعيد عنه.

وكل معروف: قولي أو سلوكي أو مادي هو من الصدقة، فقد اتسع معناها ليشمل الناس بأسرهم.

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥.

(٢) فقه السنة، ج ١، ص٣١٥.

وعن أبي موسى الأشعري – ﷺ –، قال: قال النبي (ﷺ): على كل مسلم صدقة. قالوا: فمن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف؟ قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيأمر بالخير. أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر، فإنه له صدقة"(١)

في هذا الحوار المباشر بين الرسول والصحابة، نلاحظ مدى اعتناء الصحابة بذكر كل حالة ضيق يمر بها الفرد في حياته قد تمنعه من التصدق، وحرص الرسول على إفساح المجال لكل فرد مهما ضاق به الحال أن يتصدق. فمن لا يجد المال ميراثًا وغني، فهو يجب أن يعمل فينفع نفسه ويتصدق حتى لو كان عمله بسيطًا ودخله قليلا؛ ومن كان لا يعمل أو تعرض لبطالة، فله أن يساعد"الملهوف"، وهو الشخص ذو الاحتياج الطارئ، فمن لم يجد، فله أن يذكّر الناس بالخير، عبادات مفروضة أو مندوبة أو أعمال بر مختلفة، فلو لم يفعل هذا، فمجرد صمته وعدم فعله الشر، هو صدقة له.

صار المسلم وفقًا لهذا الحديث شخصًا إيجابيًا في كل حال، في الغني والفقر، في العمل والبطالة، في القول والصمت، شرط كل هذا أن يمتنع عن المعصية وفعل الشر. ولو نظرنا للحديث من زاوية أخرى، زاوية الحكم الأدنى، أن يصمت الفرد عن الشر، بمعنى ألا يتكلم به ولا يفعله، فلو فعل الناس ذلك لمحي الشر تمامًا من المجتمع، لأن الشر درجات تبدأ بالقول وتنتهي بالفعل، فلو لم يفعل الناس أي خير، وامتنعوا عن الشر، لعاش المجتمع في سعادة، وخلا من الشقاء والشرور.

ومن ناحية أخرى: فإن خدمة المسلم لمجتمعه وللناس جميعًا، توازي ما يسمى

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥.

بالعمل التطوعي الآن. ويطلق الباحثون الاجتماعيون المعاصرون على عمل هذه الشخصيات مصطلح"العمل التطوعي"الذي يُعرّف بأنه:"كل ما يبذله الفرد بهدف تقديم الخدمات الاجتماعية أو الإغاثية أو التربوية، بلا أجر مادي، سواء كان ما يبذله علمًا أو وقتًا أو جهدًا بدنيًا أو رأيًا... مما يمتلكه الفرد ويحتاجه الآخرون"[1]، وجاء في بيان المؤتمر العالمي للتطوع في العام ٢٠٠١م أن التطوع هو:"اللبنة الأساسية في بناء المجتمع المدني، فالتطوع يجسد في الحياة أنبل آماني الإنسان في تحقيق السلام والحرية، وإيجاد مختلف الفرص والأمان والعدالة لكل البشر"[2]

إن هذين التعريفين يتناولان العمل الخيري من منظور مدني بحت، فهما يتعاملان من منطلق الرؤية الغربية التي تعزز الخدمة المجتمعية المدنية، من منطلق علماني، أما في الإسلام، فإن العمل التطوعي من صميم الدين، فهو: كل معروف، يؤديه الفقير أو الغني، الصغير أو الكبير، لايحتاج إلى تفرغ، فكل لحظة أو موقف من الممكن أن يتطوع المسلم لفعل الخير وخدمة الآخرين، المسلم إيجابي في كل لحظة، أما في الرؤية الغربية للتطوع، فإن المتطوع شخص يحتاج إلى تفرغ للقيام بالعمل الخيري، وهذا لا يمنع من تفرغ فئة من المسلمين للقيام بأعمال البر تنظيمًا ومتابعة، بل المقصد أن يتحول المجتمع كله إلى مجتمع خيّر متراحم، لا يكتفون بما تؤديه الجمعيات الخيرية.

---

(١) العمل التطوعي، أوراد يحيي، مجلة الهلال الأحمر الكويتي، يونيو ٢٠٠١، ص١٠.

(٢) نشرته مجلة الهلال الأحمر الكويتي، عدد يونيه ٢٠٠١، ص٨، ٩، ضمن تغطيتها لأعمال المؤتمر العالمي للتطوع. ومفهوم المجتمع المدني حديث مرتبط بالعصر الحديث حيث ازدهرت المدن في أوروبا بوصفها حاضنة للمصانع والمتاجر والمؤسسات... إلخ، حيث يتكدس السكان بالملايين، وتغيب القيم الإنسانية الطيبة مثل: الرحمة والتكافل ومساعدة المحتاجين في خضم المادة، بعكس القرية حيث قلة عدد السكان، وترابط العائلات، وشيوع التكافل فيما بينها. انظر تفصيلاً لذلك: المجتمع المدني بين النظرية والتطبيق، د. الحبيب الجنحاني، دراسة منشورة بمجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد ٢٧، مارس ١٩٩٩م

وعن عدي بن حاتم، قال: ذكر النبي (ﷺ) النار فتعوّذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار، فتعوّذ منها، وأشاح بوجهه. ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يكن فبكلمة طيبة"[1].

شأن المصطفى (ﷺ) في كل موقف التذكير بالآخرة، فيجعل أعيننا الملهاة بزخرف الدنيا، وقلوبنا المنشغلة بتقلبات الدنيا وصراعاتها وأهوائها، تعود إلى الغاية الأساسية في حياتنا، نيل مرضاة الله، ورحماته، والنجاة من نار جهنم. وعندما تذكر النار يتعوذ الرسول منها، ويشيح بوجهه، وحينما يتكلم يكون الكلام ذا بعد خيري مجتمعي، بالرحمة والصدقة نحو الناس، بأن نتقي نار جهنم، بأهون السبل: بشق تمرة أو بكلمة طيبة. في كلام الحبيب (ﷺ) حذف، وتقدير المحذوف: اتقوا النار بالتصدق بشق تمرة، أو بقول كلمة طيبة. وكلا الفعلين يجلبان الثواب للذات الفاعلة، ويتوجهان نحو الآخرين في ميدان المساعدة العينية أو القولية.

و ذات مرة، كان النبي (ﷺ) جالسًا إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة، فأقبل الرسول على الجالسين بوجهه ناصحًا إياهم بقوله: اشفعوا فلتؤجروا، وليقضِ على لسان نبيه ما شاء"[2].

ودلالة الحديث: إذا جاء من يطلب حاجة (معونة)، فلنتكلم بالكلام الطيب في حقه، وجاء تعبير"فلتؤجروا"ذو دلالة وإرشاد، فالمقصود منه: أي أعينوا طالب هذه الحاجة بقلوبكم وألسنتكم وإمكانياتكم، فإن جزاء ذلك الأجر عند الله[3].

وقد كان الرسول قدوة في الزهد والعطاء، وقد قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: قال رسول الله (ﷺ) والتفتَ إلى أُحد فقال: والله ما يسرني أن لآل مُحَمَّد

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥.
(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٦.
(٣) شرح المحقق في الهامش.

ذهبًا أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت وعندي منه دينار، إلا دينارًا أرصده لدَين. قال: فمات رسول الله (ﷺ)، وما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة، ولقد ترك دِرعه التي كان يقاتل فيها رهنًا بثلاثين قفيزًا من شعير. ثم قال ابن عباس: لقد كان يأتي على آل مُحَمَّد (ﷺ) الليالي، ما يجدون فيها عشاء".

وعن أبي عباس – رضي الله عنهما – قال: خرج رسول الله (ﷺ) على أصحابه ذات يوم وفي يده قطعة من ذهب، فقال يا عبد الله بن عمرو. ما كان مُحَمَّد قائلاً لربه لو مات وهذه عنده؟ ثم قسَمَها قبل أن يقوم. ثم قال: ما يسرني أن لآل مُحَمَّد (ﷺ) مثل هذا الجبل – وأشار إلى الجبل – وأني متُّ وتركت منه دينارين. قال ابن عباس: فقبض رسول الله (ﷺ) يوم قبض، فلم يدع دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة، وترك درعه مرهونة بثلاثين صاعًا من شعير = كان يأكل منه ويطعم عياله = عند رجل من اليهود"[1]

إن العطاء أحد مكونات الرحمة، فمن مظاهر الرحمة بالفقير أن نساعده للتغلب على فقره، ولكن الرسول (ﷺ)– الرحمة المهداة – يتجاوز ذلك، لتكون حياة الزهد هدفًا له، يكرس نفسه للإنفاق في سبيل الله، غير ناظر إلى ما عند أهل بيته، ألديهم عشاء أم لا؟ وبعبارة أخرى: إن الرسول يعيش حياة الفقراء، سعيدًا بهذا الفقر، شاعرًا بآلامهم، وقدوة لكل ذي يسار وغنى.

ونلاحظ تبيين جوانب الفقر– من منظور الراوي كما هو مشاع في هذا الوقت، فقد مات الرسول (ﷺ) ولم يترك:

– أي مال: دينارًا أو درهمًا.

---

(١) تهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري (مسند عبد الله بن عباس ﷺ)، قرأه وخرّج أحاديثه: محمود مُحَمَّد شاكر، السفر الأول، مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص٢٣٨، ٢٣٩. وقد ذكر الشارح تعليقًا على الحديثين: وها خبر عندنا صحيح سنده وإن كان راويه عكرمة عن ابن عباس فيه نظر عند البعض، ص٢٤٠.

– العبيد والجواري: وهم يعبرون عن جوانب اليسر المادي في الزمن القديم، فهم يعملون لدى صاحبهم خدمًا، وله أن يبيعهم.

– درعه مرهونة عند يهودي مقابل ثلاثين قفيزًا من الشعير، وكان أكثر خبز الرسول (ﷺ) الشعير، يأكل منه ويطعم عياله [1].

- مسامحة الناسي والمخطئ والمكره:

ففي حالات: النسيان والإكراه والخطأ غير المقصود يستوجب الأمر السماح، فالنفس البشرية معرضة دومًا إلى هذه الأحوال، لما فيها من نقص. وقد وضع الرسول (ﷺ) قاعدة المسامحة في الحالات الثلاث المتقدمة، تيسيراً على الناس، واعترافًا بضعف النفس البشرية، واعتلال العقول والقلوب في مواقف كثيرة. فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله(ﷺ) قال:"إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[2].

وقد صرح القرآن الكريم بالتجاوز عن الخطأ والنسيان، قال الله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾[4] أما الإكراه فقد ورد في قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[5] وقال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل

(١) ذكر الشارح حديثًا رواه الترمذي:"كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً وكان أكثر خبزهم من الشعير"، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد مختصرًا عن طريق عكرمة عن ابن عباس. المرجع السابق، ص٢٣٩.

(٢) حديث حسن، رواه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥)، والبيهقي وغيرهما.

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٦)

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٥)

(٥) سورة النحل، الآية (١٠٦)

ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾[1]

فالخطأ: أن يقصد الفرد فعل شيء، فيصادف فعله غير ما قصد، مثل القتل الخطأ. والنسيان: أن يكون ذاكرًا لشيء، فينساه عند الفعل، وكلاهما معفوّ عنه، يعني لا إثم فيه، و"لكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم، كما أن من نسي الوضوء وصلّى ظانًا أنه متطهر، فلا إثم عليه بذلك، ثم تبين له أنه صلّى محدثًا فإنه عليه الإعادة"[2]. فالعفو معناه رفع الإثم، والإثم مرتبط بالنية والقصد، وكلا الناسي والمخطئ لا قصد لهما، فلا ذنب عليهما.

أما حكم المكره، فإنه على ضربين: أحدهما: من لا اختيار له بالكلية، ولا قدرة له على الامتناع، مثل من زني بها من غير قدرة لها على الامتناع، فهذا لا (شيء) عليه بالاتفاق. والضرب الثاني: من أكره بضرب أو غيره حتى فعل، فهذا الفعل يتعلق به التكليف فإن أمكنه أن لا يفعل فهو مختار للفعل [3].

ونستطيع أن ننظر إلى الناسي والمخطئ والمكره، من منظور إنساني أرحب، فالحالات الثلاثة لا توجد في مجتمع بعينه، ولا تخص دين الإسلام عن غيره من الديانات، بل هي تخص كل الناس، فمن عظمة التشريع الإسلامي؛ امتلاكه فضاء إنسانيًا رحبًا، يتيح له التواصل مع كافة الناس، وإذا كان المصطفى (ﷺ) ذكر في مطلع الحديث:"رفع عن أمتي"وهي تعطي دلالة التخصيص بأمة المسلمين، فإن الأمر ينصرف إلى الأحكام الشرعية والفقهية التي تخص جموع المسلمين. ولكن يظل الأمر في إطاره الإنساني، فإن تعامل

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٨)

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨، ص٤٥٥.

(٣) السابق، ص٤٥٦، ٤٥٧.

المسلم مع غير المسلم في الحياة يعتريه إصابة غير المسلم بخطأ أو نسيان أو إكراه، فلابد أن يسامحه المسلم، خاصة في مجال العمل المشترك، في صناعة أو تجارة أو زراعة...، وهذا أدعى لجذب غير المسلم للإسلام، لما يجده من تصرف المسلمين ومسامحتهم للناس، والتماس العذر لهم. كذلك، لا يجوز إكراه غير المسلم على الإسلام، باستخدام العنف أو الحاجة إلى طعام أو ملبس أو مسكن أو تعليم، في مقابل الإيمان بالإسلام، مثلما يفعل المنصّرون مع الشعوب الفقيرة في أفريقيا وآسيا وغيرها، فالآية القرآنية صريحة ﴿ لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾[1]، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح، جلية دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره ونور بصيرته، دخل فيه على بينة من أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا [2].

والتسامح سلوك بشري عظيم، ولكن هناك فرق بين التسامح الوقتي والتسامح الدائم، فالأول: يتوقف على مزاجية الشخص، ومدى علاقته بالمخطئ، أما الثاني: فهو صفة ملازمة بالشخص المسامح، تجعله لا ينظر إلى المخطئ بقدر ما ينظر إلى خلق العفو والمسامحة فهو سلوك ملازم للشخص سواء كان في موضع السلطة أو العامة، وهذا ما أكدته الأبحاث النفسية، حيث ربطت ما بين التسامح والتساهل، واعتبرت أن هذا الخلق يظهر من قبل السلطة نحو تجاوز نظام أو قانون ما، وأن "عتبة التسامح"تتغير مدتها حسب

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٥٩.

تكوين ونفسية وثقافة الأفراد وحسب طبيعة الإثارات" [1]. أما في الإسلام، فهو سلوك حميد، من موجبات خلق المسلم، مادام في الأمر سعة، والخطأ غير متعمد، ومرتبط بالنسيان أو الإكراه أو ما شابه.

فالحكمة من عدم الإكراه جلية؛ فالإيمان عملية قلبية، لا يمكن أن يؤمن إنسان بدين وهو مرغم، بل سينطق لسانه ويردد، وقلبه أبعد ما يكون عن تعاليم الدين، وهذا يتناقض مع إقامة شعائر الدين، فالنية ركن في كل عبادة، وحضور القلب مفتاح قبول العمل. فكيف بمن لم يؤمن قلبه منذ البدء؟

(١) موسوعة علم النفس، مرجع سابق، مج ٣، ص١٠٨٠.

المبحث الثاني

الرحمة بأفراد المجتمع في سنّة النبي محمد ﷺ

المجتمع أفراد، وأسر، وجماعات، وقبائل، وبين هؤلاء جميعًا علاقات إنسانية مشتركة، بها المودة والتباغض، التلاحم والتفرق، التراحم والقسوة. وهي قيم تتوقف على الرابطة التي تجمع أفراد المجتمع، وعلى منبع القيم الذي تستقي منه الجماعة قيمها. فإذا كان المنبع طيبًا، كانت الرابطة نقية صالحة، كلما حدث فيها اعوجاج، انتبهوا لخطئهم فعادوا إلى نبعهم يستقون منه ما يصحح مسيرتهم. إن"الإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والغش والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصح إخاء أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله (ﷺ) جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله"[1]. وسنعرض – تفصيلاً قدر الإمكان – لأبرز جوانب الرعاية التي حض عليها المصطفى (ﷺ)، وحفز أصحابه إليها، في النقاط الآتية:

- الرحمة بالوالدين:

فهما أول المستحقين للرحمة، لفضلهما على الفرد؛ فهما سبب وجوده في الحياة وقاما على رعايته وتنشئته.

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١٨١.

عن أبي بكرة عن أبيه – رضي الله عنهما –: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: ثلاثًا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور. ألا وقول الزور، وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلتُ لا يسكت"[1]

فقد جعل عقوق الوالدين وهما من أقرب الناس للفرد الكبيرة الثانية بعد الإشراك بالله، وهذا يدل عظم الذنب، ففضل الوالدين على الإنسان لا يدانيه فضل.

- التراحم في الزواج والمصاهرة:

وهذا النقطة أساس للنقطة السابقة، فإن السعادة بين الزوجين – في نظر الإسلام – ليست سعادة مادية، تتحقق بالسكن والملبس والأثاث، بل تنبع من قلبيهما، قلبان يملؤهما المودة والرحمة، وصدق المولى تعالى:﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2].

وقد شدد الإسلام على أهمية اختيار الزوجة على أساس الدين، حيث يقول الرسول (ﷺ):"تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"[3]. ويقول (ﷺ): خير النساء من إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا أمرتك أطاعتك، وإذا أقسمت عليها أبرتك، وإذا غبت عنها

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٨.

(٢) سورة الروم، الآية (٢١).

(٣) صحيح البخاري، ج٣، ص ٣٦٠.

حفظتك في نفسها ومالك"[1]. ومن المزايا التي ينبغي توافرها في المرأة المخطوبة أن تكون من بيئة كريمة، معروفة باعتدال المزاج، وهدوء الأعصاب، والبعد عن الانحرافات النفسية، فإنها أجدر أن تكون حانية على ولدها، راعية لحق زوجها[2].

إن اختيار الزوجة الصالحة الطيبة رحمة للزوج من شقاء الحياة وعنفوانها، فالزوجة الصالحة ستشمله برعايتها، وتحنو عليها. والمرأة الصالحة رحمة بأبنائها، في حملهم ورضاعتهم، وتربيتهم، وتدريسهم. إن المنظور الإسلامي للزواج ينطلق من الرحمة الشاملة؛ للزوج كي يعيش في بيت هانئ، دون تعقيدات أو مشكلات، وللمرأة التي تختار زوجها متدينًا صالحًا، فتطمئن إلى نفسها معه، فإن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها، وللولد حيث التربية السعيدة بين أبوين متحابين متراحمين.

كما أن رسول الله لم يقر ولي أمر الفتاة على تزويجها بمن لا ترغب فيه كرهًا عنها، وهذا يعطي المرأة المسلمة فرصة اختيار الزوج الصالح.

وقد شدد الرسول على اختيار الرجال لأخلاقهم وحسن عبادتهم، وليس على أموالهم. فقد عرضت امرأة نفسها عليه، ولكنه سكت، فالتمس رجل كان حاضرًا أن يتزوجها، فما زال به الرسول أن يمهرها، ولكن الرجل أخبره أنه لا يملك شيئًا ولا عند أهله شيء، فقال الرسول (ﷺ):"انظر ولو خاتمًا من حديد. فلم يجد الرجل وعرض إزاره، فقال رسول الله: ما تصنع بإزارك، إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء. ثم قال له الرسول: ماذا معك من القرآن؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا – عدّدها –، فقال: تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال: نعم. قال:

---

(١) رواه النسائي وغيره بسند صحيح، سنن النسائي، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٢، ص٢١٠.

(٢) فقه السنة، ج٢، ص١٥.

اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن"[1]. وعن أنس، أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة (أي من ذهب) فرأى النبي بشاشة العرس، فقال: إني تزوجت امرأة على وزن نواة"[2].

حرصَ النبي (ﷺ) على إمهار المرأة تقديرًا لها، دون مغالاة في المهر، وقد ظل مع الرجل الفقير، حتى زوجه بما يحمل من قرآن، فحامل القرآن أمين على المرأة التي ينحكها. في القصة المتقدمة معان عديدة، أبرزها: الحث على النكاح الذي يقوم على الدين، والدين شامل لكل خير، وفيها تقدير واحترام للمرأة، وعدم امتهانها، رغم أنها عرضت نفسها على الرسول كي يتزوجها، وتقدير الرجل المؤمن وتزويجه رغم فقره.

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف، فإنه تزوج على وزن نواة من ذهب، هذا هو مهر زوجته، بسيط، قليل، ولكن فيه تقدير لمكانة المرأة، وفي الحديث إرشاد إلى عدم المغالاة في المهور، فمن يمن المرأة يسر مهرها.

والنبي ساعٍ إلى تعميق الفهم بأن الرجال يُقوَّمون في النكاح وفي سائر شؤون الحياة بأخلاقهم، وليس بأشكالهم. فعن سهل قال:"مر رجل على رسول الله فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌ أن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشفَّع وإن قال أن يُستَمع. قال ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين؛ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري أن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع. فقال رسول الله (ﷺ): هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[3].

رسالة الحديث بسيطة واضحة: لا ننخدع بمظاهر الرجال، ولا بنسبهم،

---

(١) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٥٩، ٣٦٠، من حديث سهل بن سعد.

(٢) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٧٥.

(٣) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٦٠.

ولا بما يملكون، وإنما الحكم في الأمور كلها: التقوى ومرضاة الله. ولننظر إلى رأي سامعي الرسول فقد أجازوا للغني ذي النسب: أن يزوج، وأن يسمع، وأن يشفع. إنها مقاييس القبول الاجتماعي للرجل، ولكن الرسول (ﷺ) بكلمة واحدة أعاد نصاب الأمور إلى أصلها الإسلامي. ونخرج من الحديث بإعادة النظر في موازيننا مع الناس، فالصالح التقي: نزوجه، ونشفعه، ونسمع له، وفي كل هذه الأمور سيكون الصالح التقي أمينًا على من يتزوجها، وعادل في قوله وشفاعته.

كلمات المصطفى الرقيقة تعبر عن ظاهرة"التعاطف والتواد"وهي ظاهرة نفسية في الأساس، تهدف إلى تصحيح التفسيرات لدى الآخرين بهدوء، ومن خلال مشاعر واتصالات وانفعالات، وتعطي الإيحائية العاطفية وهي من أعلى مستويات السلوك البشري [1]، وقد مارسها الرسول (ﷺ) في الحديث من خلال الكلمات، والإيماءات، وضرب المثل العملي بالأشخاص والمواقف المستجدة.

وجاء النهي عن التصارع من أجل المرأة في الخطبة، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما –: نهى النبي (ﷺ) أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذنَ له"[2].

فالناس كما تتصارع على المادة، تتصارع على النساء، وكم من حالات تُخطَب فيها المرأة لرجل، ثم تُفسَخ خطبتها لتقدّم خطيب آخر لها أكثر مالاً أو جاهًا أو نسبًا. كأن المرأة سلعة لمن يدفع أكثر، وكأن الزواج ميدان صراع وليس ميدان حب ومودة ورحمة، فجاء النهي واضحًا صريحًا، فنفس الرجل الذي يجد أهل خطيبته يفضلون غيره عليه لسبب دنيوي، تصاب بالألم والحسرة ثم يكون التشاحن والبغضاء. هذا باب فتنة عظيمة، وليت الناس يعلمون آثاره المدمرة، على المرأة والرجال.

---

(١) موسوعة علم النفس، مرجع سابق، مج٣، ص١٠٤٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٧٣.

ولا يحل للرجل أن يضيّق على زوجته من أجل أن يأخذ من صداقها أو ميراثها، أو أن يضربها، ولكن إذا أتت بفاحشة مبينة كان له أن يعضلها لتفتدي منه، ويجب على أهلها أن يعينوه فيكشفوا الحق دون النظر لابنتهم[1]، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ [2]

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية: أنا أباها زوّجها وهي ثيّب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله (ﷺ) فرد نكاحها[3].

وهذا باب آخر يغلقه الرسول بتشريع واضح في شأن هذه المرأة المكرهة على الزواج من غير من ترغب، إن حياة المرأة تصبح جحيمًا حينما يتم امتهان آدميتها، وتجد أهلها يعاملونها مثل الجماد: تُزَّوج غصبًا، وتُطلَّقُ غصبًا، وتعيش غصبًا، فسنّ الرسول حقًا ثابتًا: لا نكاح دون موافقة المرأة الثيب.

- الرحمة بذوي الأرحام:

وهي تشمل كل من له صلة رحم أي قرابة الدم والنسب بالمرء، وفي هذا يروي جبير بن مطعم أنه سمع النبي (ﷺ) يقول:"لا يدخل الجنة قاطع"[4] وعن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله (ﷺ):"الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله"وعن أبي هريرة – ﵁ – قال: قال رسول الله: إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا

---

(١) انظر: فقه النساء في الزواج والعشرة والنشوز والطلاق، ابن تيمية، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص٢١٣.

(٢)سورة النساء، الآية (١٩)

(٣) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٧٢.

(٤) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٩.

مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك. قالت: بلى. قال: فذاك لك"[١].

والقاطع هو من قطع رحمه، وهذا ما فسره الإمام البخاري رحمه الله، رغم أن اللفظ عام، ولكن له علاقة مجازية في الحديث، فهو أطلق عامًا، وأريد به الخاص [٢]، ولكن تبقى دلالة العموم أشد، فمن قطع رحمه كأنه قطع سائر الروابط، فذوو القربى هم الأقرب بالمعروف، والأدل على إحسان الصلة، ومن قطع رحمه فإنه لن يدخل الجنة، وهذه العقوبة الأشد.

ويروي أنس بن مالك – ﷺ – أن رسول الله (ﷺ) قال: من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه"[٣]

وهذا الحديث يعطي الوجه الآخر الحسن من صلة الرحم، وهو وجه يجمع الدنيا: بسط الرزق، وبقاء الذكر الحسن بين الناس.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي (ﷺ):"إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته"[٤]

وقد نقل اللفظ "شجنة" الحديث إلى ميدان دلالي عظيم، فالشجنة: عروق الشجر المشتبكة، والشجن واحد الشجون وهي طرق الأودية [٥]، فقد شبه الرسول الرحم مثل عروق الشجر الملتفة المتواصلة فيما بينها، أو مثل

---

(١) الحديثان في: صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٨١.

(٢) ذكر الإمام الغزالي أن المعنى المقصود هو من:"قاطع بين الناس وهو النمام وقيل قاطع الرحم"إحياء علوم الدين، ص ٨٤٩.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٩.

(٤) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٩.

(٥) شرح المحقق في الهامش.

الأودية في الصحراء وهي ذات صلة فيما بينها لأن الماء المنثال من السيول والأمطار يصنع الأودية، وفي كلا المعنيين: هناك وشائج قوية بين الأقارب، جمعها الدم الواحد مثلها مثل عروق الشجر التي تغذت من أرض واحدة وجذر واحد، ومثل الأودية التي تكونت من مصدر واحد وهو المطر، على أرض واحدة وهي الماء.

ثم جاءت بقية الحديث، بحديث قدسي: "قال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته"، فقد انتقل الخطاب من الغائب (عن الرحم) إلى مخاطبة الرحم كأنه بشر، باستخدام كاف الخطاب في (وصلك، قطعك)، وباستخدام أسلوب الشرط في الجملتين، الذي يربط السبب بالنتيجة، مثله مثل وشيجة الرحم.

- الرحمة بالمرأة:

فقد تعامل الرسول مع النساء معاملة التقدير والاحترام، فما بين النهي عن وأد البنات إلى إكرام الفتيات والاعتناء بتربيتهن، ثم تزويجهن. إن دعوات المساواة التي أطلقت في الغرب، وتجاوب معها بعض المتغربين من الشرق الإسلامي، إنما هي دعوات زائفة، واتضح زيفها في بلاد الغرب ذاته، فها هن النساء يخرجن في مظاهرات في الدول الإسكندنافية يطالبن بعودتهن إلى المنازل لرعاية الأولاد فخروجهن أدى لانحراف أبنائهن، ولا نقصد بخروج المرأة ألا تتعلم وتعمل، وإنما نقصد تبرجهن ومزاحمتهن في الأماكن العامة، واختلاطهن بالرجال دون مراعاة للضوابط الشرعية، ولكن للمرأة أن تتولى الكثير من الأعمال، ولها أن تتعلم وتصل لأعلى المراتب، وهناك من الوظائف التي لا تصلح إلا المرأة فيها مثل تعليم البنات والطبابة والتمريض للنساء وغير ذلك.

إن دعوات المساواة أسفرت فيما أسفرت عن اقتسام النساء ثروات

الرجال عند الطلاق، أي إذا طُلّقَت المرأة فلها نصف ما يملك الرجل، وهذا أدى لعزوف الرجال عن الزواج وتفضيلهن لحياة غير شرعية سنوات وسنوات ولا مانع من إنجاب أطفال غير شرعيين، فالمجتمعات الغربية تتقبل هؤلاء دون غضاضة، قبل الزواج وتحمل المسؤولية، ويكفي أن الملياردير"مردوخ"طلق زوجته في الولايات المتحدة الأمريكية العام الماضي فرفعت زوجته المطلقة دعوى اقتسام الثروة، وحكم القضاء الأمريكي لها بمليار وسبعمائة مليون دولار[1]. فالإسلام دين الفطرة، وشرعته تحقق السعادة للناس جميعًا، وفي منظوره للمرأة راعى أنها ذات عاطفة غالبة، تكمل عقلانية الرجل. وفي هذا يقول الرسول (ﷺ):"المرأة كالضلع: إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج"[2] وفي الحديث أيضًا:"استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضرع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا"[3] ومفهوم العوج لدى المرأة يتعلق بشخصية المرأة التي تغلب عليها العاطفة والهوى، مما يؤثر في حكمها على الناس والأمور، ولا يقصد به الحط من شأنها، ولا النيل من ذكائها، ولا استقلال شخصيتها، ويكفي أن المرأة تظل محتفظة باسمها بصفة دائمة، حيث تحمل اسم والدها وجدها وعائلتها، سواء تزوجت مرة أو أكثر من مرة، في حين أنها في المجتمعات الأوروبية، وإلى عهدنا الحالي، تحمل المرأة اسم عائلة الزوج بمجرد زواجها، وإذا تزوجت مرة أخرى (طلقت أو ترملت) فإنها تحمل اسم عائلة الزوج الجديد، فكأن وجودها الرسمي في الأوراق مرتبط بوجود الزوج، وبشخصيته. كما أنها في الإسلام لها

---

(١) جريدة القبس الكويتية، ٢٠٠٧/٢/٧، دراسة عن حياة مردوخ امبراطور الإعلام الدولي: المقروء والمسموع والمرئي، إعداد: مارون بدران.

(٢) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٨٢.

(٣) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٨٣.

ذمتها المالية الخاصة بها، ولا يحل للزوج أن يأخذ من مالها إلا بإذنها، ولها ملكيتها الخاصة التي صانها الإسلام، وفي كل هذا، نراعي أن المرأة لها تكوين خاص، يعود إلى الجانب العضوي والنفسي، فلابد أن يراعي المجتمع هذا التكوين، ويراعي خصوصيتها، فلا تمتهن، وتصبح موضعًا للاستغلال الجسدي الرخيص، وإنما تصان قبل الزواج وبعده.

وقد حفل التشريع الإسلامي بأحكام تفصيلية في حقوق المرأة، فإذا ادعى ناعق أن الإسلام أهدر حقوق المرأة بتعدد الزوجات، فإن هذه قضية مردود عليها في الكثير من الكتب والبحوث المعمقة، ويكفي أن نشير إلى أن آخر الإحصائيات تشير تعدد العلاقات غير الشرعية للرجال المتزوجين في المجتمع الغربي، وقد اعترف حوالي (٤٨ %) من الرجال المتزوجين في الولايات المتحدة الأمريكية أن لهم علاقات غير شرعية وهم متزوجون، وأرجعوها لأسباب نفسية وأسرية تخصهم، واعترف حوالي (٧٠ %) من الرجال المتزوجين بشكل عام أنهم خانوا زوجاتهم أثناء حياتهم الزوجية، وبالطبع من قبلها أو بعد الزواج[١].

ويكون السؤال: أليس أكرم للرجل والمرأة على السواء الزواج في إطار شرعي وقانوني؟ بدلاً من تلوث سمعة الزوج الخائن، وتلوث سمعة المرأة صاحبة العلاقة، وحماية الأطفال الذين قد ينتجون من هذه العلاقات، ويكفي أن نسب الأطفال غير الشرعيين في المجتمعات الغربية وصلت إلى معدلات مخيفة، وتصاعدت معهم ظاهرتا: الأمهات بلا أزواج، والأطفال المشردين [٢].

---

(١) نشرتها: جريدة الرأي العام الكويتية، عدد ١٢ أغسطس، ١٩٩٤.

(٢) أشارت الإحصائيات إلى أن المجتمع البريطاني يصل عدد الأطفال غير الشرعيين إلى ٤٠ % من جملة المواليد، وساعد على ذلك قبول المجتمع لهم، والاعتراف بنسبهم إلى عائلات الأم. انظر: المرجع السابق.

وفي الإسلام فإن العدل ركن أساسي في العلاقة الزوجية بين الزوجات في المال والكسوة والطعام والمبيت، ووصل إلى أن الزوج لو قصر في مبيت ليلة شتائية لإحدى زوجاته، فلابد أن يعوضها بنفس الزمن الشتائي، ولا يجوز له أن يعوضها عن ذلك بمال أو نحوه، وللزوجة أن تتدعّي على زوجها إذا ظلمها ولم يكن لها ولي، فإن وليها الحاكم، ويأخذ القاضي حقها [١]. أما في أمر المعاشرة الجنسية، فهي حق من حقوق الرجل على زوجته فلا يجوز لها أن تمتنع إذا طلبها للفراش، وإن كانت تصوم النهار وتقوم الليل، ذلك أن طاعتها لزوجها في هذا الأمر واجب، وصلاتها بالليل أو صيامها بالنهار أمور تطوعية، والواجب مقدم على التطوع، إلا إذا كانت للفرائض [٢] وقد قال النبي: لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه"، وقال: إذا دعا الرجل المرأة إلى فراشه فأبت لعنتها الملائكة حتى تصبح"[٣] وقد مدح الله تعالى النساء الصالحات: ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾[٤].

- الرحمة بالجار والضيف:

فالجار من أقرب الناس مكانًا إلى الفرد، وفي بعض الأوقات له أهمية تفوق القريب أو الأخ الشقيق. وهو عضو فاعل في المجتمع القريب من الفرد، فالمجتمع – عامة – مجموعة من الناس المتجاورين سكنًا، المتواصلين حبًا. لذا، خصه الرسول بكثير من الوصايا التي تحرض على الاعتناء به.

أما الضيف فهو كل ما جاء زائرًا من غير أهل بيت الفرد.

---

(١) فقه النساء في الزواج والعشرة والنشوز والطلاق، ابن تيمية، ص٢٠٧، ص٢٠٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢١٨.

(٣) متفق على الحديثين.

(٤) سورة النساء، الآية (٣٤)

عن عائشة – ﷺ – عن النبي (ﷺ) قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورّثه"[1].

فمن كثرة وصايا جبريل – عليه السلام – في حق الجار، ظن الرسول أنه سيورّث الجار. ولفظ"الجار"عام غير محدد، يشمل القريب والأقرب.

وعن أبي شريح أن النبي (ﷺ) قال:"والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"[2].

فقد نفى الإيمان عن الشخص الذي يتوقع جاره غدره، وهذا دلالة على سوء خلق المرء، وسوء سمعته بين الناس. فكأن الرسول (ﷺ) يقيس إيمان الفرد بمقياس سلوكي، والمقياس ليس عامًا، بقدر ما هو خاص، وخاص في وجهة نظر الجار فهو أقرب الناس مكانًا، وهو الأكثر اطلاعًا على سلوك الفرد، فلابد من الإحسان للجار.

ونفس المعيار السلوكي الذي يحكم على إيمان الفرد في أحاديث أخرى، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله (ﷺ): من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت"[3]

وهذا الحديث لا يقتصر على الجار فقط، بل يتعدى لكل ما هو إنساني: الضيف، الجار، وكل من يتحدث معه المرء.

إنه حديث التعامل مع المجتمع، المجتمع القريب الذي يقابله المرء في

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٤. وهناك رواية أخرى عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٤.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٤.

حياته، فالضيف يزور المرء في بيته أو موضع عمله، والجار قريب للمرء مكانًا، ويحدث اللقاء بشكل متكرر، ثم كل من يتكلم معه الفرد في الحياة، كلامًا بسيطًا عاديًا أو على قدر من الأهمية، فالخير لابد أن يكون قاسمًا مشتركًا في الحديث، وإلا الصمت أبلغ.

وفي رواية أخرى: عن أبي شريح العدَويّ قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي (ﷺ) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته. قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام. فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيلقل خيرًا أو ليصمت"[1]

يضيف هذا الحديث جديدًا على الضيف: تحديد جائزة الضيف، بإكرامه واستضافته يوم وليلة إلى ثلاثة أيام، وما زاد لا يدخل في دائرة واجب الضيافة، بل يصبح في دائرة الصدقة والعمل التطوعي. ليس الضيف المقصود هنا الضيف القريب في السكن، بل الضيف القادم من سفر، ويسكن في مكان بعيد، فالحكم أكثر خصوصية. إن حرص المصطفى على الاعتناء بالضيف لأن هذا من شيم الأخلاق العليا في بيئة بدوية عنوانها السفر، والعرب يحكون ويمدحون عمن يكرم ضيفه، وما حكايات حاتم الطائي عنا بغريبة. والأمر بالطبع لا يقتصر على بيئة البدو، فزيارة الضيف –شأن إنساني – في كل مجتمع، فالحكم بإكرامه يتخذ بعدًا إنسانيًا، مثلما هو الحال مع الجار، ومع كل من يعامله الناس بالحسنى وقول الكلم الطيب.

ومثلما كان هناك تحديد في نوعية الضيف، هناك تحديد في الجار الأولى

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥.

بالرعاية، إنه الجار الأكثر قربًا، فعن عائشة ﵂، قلت: يا رسول الله إن لي جارين، فإلي أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابًا"[١].

أصبح الأولى هو الجار الأقرب بابًا، لأنه الأكثر اطلاعًا، والأكثر رؤية لنا، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، لو كان مسلمًا فستزداد آصرة المودة معه، وتتدعم بأساس عقدي، ولو كان غير مسلم، فسيحب المسلم الذي أهداه.

- الرحمة باليتيم:

اليتيم الذي يموت أبوه[٢] فيواجه الحياة مع أمه، ويبحث عمن ينفق عليه، ويرعاه. إنه نموذج من الضعف الإنساني: طفولة، وفقدان الأب، وفقر.

عن سهل بن سعد – ﵁ – عن النبي (ﷺ)، قال:"أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وقال بإصبعيه السبابة والوسطى"[٣]

يمثّل الطفل اليتيم نموذجًا للضعف البشري، طفل، فاقد أبويه أو أحدهما، لا يجد من يرعاه وينفق عليه، فيكون ثواب من يتكفله بالرعاية والإنفاق مصاحبة الرسول في الجنة. ويشكّل لفظة"كافل"دقة في المعنى المراد، فالكفالة لا تعني الإنفاق فقط، بقدر ما تشمل الإنفاق المالي والرعاية الاجتماعية والوجدانية[٤]. وقد استخدم الرسول (ﷺ) إصبعيه: السبابة والوسطى، كوسيلة لتقريب المعنى المراد، وهو أن كافل اليتيم معه في الجنة، متلاصقان متصاحبان، والمعلوم أن الرسول له أعلى درجات الجنة، وخير المثوبة، فللسامع أن يتخيل

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥.

(٢) والعجي الذي تموت أمه واللطيم الذي يموت أبواه، لسان العرب، ج١٢، ص٦٤٥.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٢.

(٤) المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٠١، ولسان العرب، ج ١١، ٥٨٨، والكافل القائم بأمر اليتيم المربي له، الكافل فهو الذي كفل إنسانا يعوله وينفق عليه.

عظم الأجر والمصاحبة يوم القيامة. وقد استخدم الرسول الجوارح وسيلة لإيصال المعنى، وتقريبه للسامع الرائي، وهذا ما يسمى لغة الإشارة وهي من أقرب اللغات إلى العين، وتمثل مشتركًا إنسانيًا، إذا تعذر فهم الكلام، ولها دور كبير في تعميق المعنى وتبسيطه إذا كان الكلام بلغة واحدة، يفهمها السامع واستخدام المصطفى لإصبعيه أحدث الأثر المطلوب لدى متلقيه في حينه، وقد ذكر رواة الحديث القول والحركة في المتن أمانة منهم، وقد أحدث ذكر الوصف الحركي مزيدًا من تعميق المعنى للقارئ المسلم أيًا كان زمانه ومكانه [١].

- الرحمة بالطفل:

"عن عائشة – ﷺ – أن النبي (ﷺ) وضع صبيًا في حجره يحنّكه، فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه"[٢].

حنّك الرسول الصبيّ، بأن دعك حنكَه (ويقصد به: باطن أعلى الفم من داخل أو الأسفل)[٣]، ولكن الصبي بال عليه، فلم ينزعج الرسول، بقدر ما أرسى حكمًا فقهيًا بأن يمسح بالماء على موضع البول، وفي نفس الأمر، أظهر مدى رحمته بالصبي، فلم يفزعه، في جلسته على حجره، وقد كان الصحابة يعمدون إلى أن يحنّك النبي أفواه صغارهم، طلبًا للبركة من يديه الكريمتين.

– وعن أسامة بن زيد – رضي الله عنهما –:"كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر، ثم يضمهما ثم

---

(١) راجع: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، د. مُحَمَّد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١١٤. ويطلق على هذا اللون: الاتصال الجسدي، اللغة الجسدية، الكلام الجسدي، الحركة الجسدية، السلوك الحركي، العلامات الحركية.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٢.

(٣) القاموس المحيط، مادة حنك. ص١٢١٠.

يقول:"اللهم ارحمهما فإني أرحمهما"[1].

إذا كان الحديث الأول عامًا غير محدد بصبي، فإن هذا الحديث محدد بصبيين: أسامة بن زيد، الحسن بن علي (ﷺ)، أسامة ابن مولى الرسول (ﷺ) زيد بن حارثة، أما الحسن فهو حفيد المصطفى من ابنته فاطمة – ﷺ –، وزوجها الإمام علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه –، فلم يفرق الرسول بين ابن المولى والحفيد. والدعاء كان للولدين معًا.

وفي كلا الحديثين: يضع المصطفى الصبي على الفخذ، وهي من أقرب المواضع إلى نفس الطفل، فهو يستشعر حرارة جسد الكبير، وحنوه، كما يستشعر الكبير ضعف الصبي وصغره.

ويحدّث أنس – ﷺ –:"كان رسول الله (ﷺ) أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال: أحسبه قال فطيمًا، قال: فكان إذا جاء رسول الله (ﷺ) فرآه قال: أبا عمير ما فعل النُّغير قال: نغر (فرخ العصفور) كان يلعب به. قال: فربما تحضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته، فيُكنَس ثم ينضح، ثم يقوم رسول الله ﷺ) ونقوم خلفه يصلي بنا، قال: وكان بساطهم من جريد النخل"[2].

إننا أمام مشهد إنساني: الخادم وأخوه الصغير، وهذا نبي الرحمة، زعيم المسلمين وقائدهم، يداعبهما، بأحب ما يحب الطفل، بألفاظ التدليل والمزاح، ويصلي بهما إمامًا. هذا مزاح مع الطفولة، وهداية عملية من المبعوث صلى الله عليه وسلم). إن جوانب المشهد تنطق ببساطة النبي، وبساطة المكان، فالبساط بسيط، مصنوع من جريد النخل.

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٢.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٤.

وقال أنس بن مالك – ﷺ –:"إن الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت"[١] وعن أبي هريرة – ﷺ – عن النبي قال:"من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا، فليس منا"[٢]. ولنتصور الأمر: الرسول العظيم، وما عليه من مهام ومسؤوليات كبيرة، دعوية وإنسانية وجهادية، يسير وراء فتاة صغيرة، دون اعتراض منه، حتى يقضي حاجتها وييسر أمورها.

- الرحمة بالشيخ المسنّ:

المسن هو كبير السن [٣]، وقيل إنه من تجاوز الخمسين [٤]، والشيخوخة مظاهر جسدية وعقلية ونفسية تختلف من شخص إلى آخر، فبعض الناس تظهر عليه عوارضها مبكرًا، وبعضهم تتأخر عنه، ومظاهرها الجسدية: بطء الحركة وضعف الجسم وترهل الأعضاء، وتعدد الأمراض المزمنة مثل السكر والضغط والقلب والتنفس...، وعدم القدرة على القيام بالأعمال الشاقة، أما مظاهرها الاجتماعية فتبدو في تقلص دور المسن، وقلة الأصدقاء، والشعور بالوحدة، وأعراضها النفسية والعقلية: القلق والملل والحساسية الزائدة والسكون والإعجاب بالماضي والعناد والشك وعدم الثقة، وضعف الذاكرة والنسيان [٥].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) فضل الله الصمد، في شرح الأدب المفرد، ج١، ص٤٤٢ وبرواية أخرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ص٤٤٣.

(٣) لسان العرب، مادة (سنن)، ج١٣، ص٢٢٢.

(٤) المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٨٣.

(٥) انظر: قضايا الشيخوخة، بحث ضمن كتاب: التقدم في السن، دراسة اجتماعية نفسية، (مجموعة باحثين)، منشورات دار القلم، الكويت، ١٤٠٤هـ، ص١٣٦ وما بعدها. وأيضًا راجع: موسوعة علم النفس، مج٣، ص١١١٩، مادة"هرم".

وقد تعامل الإسلام مع المسنين بكل تقدير، فعن أبي موسى الأشعري، عن النبي (ﷺ):"إن من إجلال الله إكرام ذي السن المسلم"[١]. والإكرام يشمل المعاملة الحسنة، والتبسم بوجهه، والإحسان إليه، ومساعدته في شؤونه. ولم يعتبر الإسلام المسن عبئًا على أسرته أو على المجتمعه، بل مدحه، وأثنى عليه، فالمسن يحمل الحكمة وخيرة السنين، وهو يمثل المرجعية لمن حوله، فعن كعب بن مرة – ﷺ –، عن النبي (ﷺ): من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة"[٢]، فالشيب علامة التقدم في السن وفرصة للمرء أن يراجع نفسه، فكلما تقدم العمر، شعر الإنسان بقرب النهاية، فيستعد للقاء الله بأداء ما هو خير، وجلب المزيد من الحسنات بفعل الطاعات، فينفع نفسه، ويكون قدوة لمن حوله. وعن عبد الله بن مسعود – ﷺ – أن رسول الله قال:"إن لله عبادًا يضن بهم عن الفناء ويطيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسّن أرزاقهم، ويحييهم في عافية، ويقبض أرواحهم في عافية"[٣] ذلك هو المقياس لطول العمر، وهذا أدل على عظم الاهتمام برسالة المشيب، المتمثلة في خدمة الناس ونصحهم والتأسي لهم , لذا حذّر المصطفى من المسنّ المتعلق بالدنيا، يروي أبو هريرة – ﷺ – قال: سمعت رسول الله يقول:"لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل"[٤] ولا يقصد بالأمل: الآمال العظيمة العلمية والمجتمعية، وإنما الآمال المادية التافهة التي تقعد المسن عن فعل الطاعات، وهو يعلم أن شيبته نذير من الله بقرب النهاية، لذا جاء طول الأمل في الحديث

(١) الأدب المفرد، البخاري، منشورات: دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص١٣٠.

(٢) الأدب المفرد، ص١٣٠.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ١٧٨.

(٤) صحيح البخاري، ج٤، ص١٧٦.

مسبوقًا بحب الدنيا، أي حب التنعم الدنيوي الذي ينأى بالمرء عن النظر للآخرة، والاستعداد لها.

وقد كان المصطفى يدعو للمسلم بطول العمر، إمعانًا في المزيد من طلب الخيرات، ونفع الآخرين، فعن أنس – ﷺ – أن النبي (ﷺ) دعا له الله تعالى قائلاً:"اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له"[1]، وقد طالت حياة هذا الصحابي الجليل إلى ما فوق مئة عام، ورزق الخير الوفير، وكان نبراسًا للناس في الدعوة والهدى.

ويروى أن أم قيس قالت: توفي ابني، فجزعت عليه، فقلت للذي يغسله لا تغسل ابني بالماء البارد وتقتله، فانطلق عكشاة بن محصن إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره بقولها، فتبسم ثم قال (ﷺ): قالت، طال عمرها؟!، قال: فلا أعلم امرأة عُمّرَت ما عُمّرت [2]. في الحديث مقابلة بين: المرأة الجزعة الحزينة على ابنها، فأرادت كل خير له، بأن يغسل بالماء البارد، رغم أن الميت لا يشعر، فلما علم النبي، قدّر ما نفسها من ألم، فدعا لها بطول العمر، حبًا وخيرًا لها.

ومن الجانب الآخر، فإن عمل الطاعات سبب في طول العمر، فهو برهان على طيب المرء، وسعيه لنفع نفسه بالخيرات، ونفع الآخرين. فعن"عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله (ﷺ): إن من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة. وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان الأعمار"[3].

لقد أبان الحديث المنظور الإيجابي للشخص المسن في الإسلام، فهو من

---

(١) الأدب المفرد، ص٢٢٣.

(٢) الأدب المفرد ص٢٢٢.

(٣) الأدب المفرد، ص٢٤.

يودّ ذوي أرحامه، ويحسن خلقه مع الجيران حوله وسائر الناس. إنه منظور التراحم الاجتماعي، وفي هذا الإطار يكون دور المسن. ونلاحظ تشديد الحديث على أهم موجبات الرحمة: الرفق، فهو مفتاح الخير في السلوك والتعامل وطول العمر. وفي نفس الوقت، أوجب الإسلام على المسلم أن يحسن رعاية المسنين، باحترام الأبوين في حياتهما، وتوقيرهما، وطاعتهما، وبعد مماتهما عليه واجب أكبر، يظهره جواب الرسول لأحد صحابته. فعن أبي أسيد ﷺ، كنا عند رسول الله، فقال رجل: يا رسول الله هل من بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما؟ قال: نعم؛ خصال أربع: الدعاء لهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما"[1] وكل هذه الخصال تنبع من نفوس مؤمنة، أحبت الوالدين في حياتهما، وترحمت عليهما بعد مماتهما، بفعل عملين تعبديين في الأساس: فالدعاء والاستغفار مخ العبادة، ثم أداء عملين مع البشر في الدنيا: تنفيذ عهد الوالدين ووعدهما، وإكرام أصدقائهما.

ولنتوقف قليلاً عند إكرام أصدقاء الوالدين، فهذا فعل اجتماعي يعبّر عن غاية الاحترام والترابط الاجتماعيين: احترام للوالدين المتوفين، واحترام ذوي الشيب في المجتمع، وسنلاحظ أن أصدقاء الوالدين سيكونان في دائرة اجتماعية مقربة من الأبناء، وقد أكد المصطفى هذا المعنى، فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي:"من البر أن تصل صديق أبيك"، وعن ابن عمر أيضًا، عن النبي:"من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه"[2].

---

(١) الأدب المفرد، ص٣٢.

(٢) كلا الحديثين في الأدب المفرد، ص٣٠، ٣١.

- الرحمة بالمريض:

المرض مظهر آخر من مظاهر الضعف البشري، فمهما اشتد المرض أو ضعف فإن النفس البشرية تكون عاجزة أمامه، فترضخ، وتسقط إعياء، ووقتئذ يحتاج الإنسان من يقف بجانبه: علاجًا ورعاية وزيارة ومؤانسة. والمعلوم أن من يزور المريض وقت مرضه، تظل آثار الزيارة راسخة في نفس المريض، فكما نتذكر من يشاركوننا أفراحنا، نتذكر من يواسوننا في أحزاننا ومرضنا.

وقد حض المصطفى (ﷺ) على زيارة المريض، فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله (ﷺ): أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكّوا العاني"[1]

وعن ثوبان مولى رسول الله، عن رسول الله (ﷺ)، قال: من عاد مريضًا لم يزل في خرفة الجنة. قيل: يا رسول الله! وما خرفة الجنة؟ قال: جناها"[2].

وقد جعل النبي عائد المريض في طريقه للجنة، أو في جنى الجنة، إنها القنطرة التي تصل كل أفعال المسلم بالآخرة، فمن اعتقد أن زيارته لمريض تجعله سائرًا في طريق الجنة، سيحرص على عيادة كل مريض، فينال الثواب بشكل فردي، ويحقق التواصل مع مجتمعه بشكل جماعي، ناهيك عن الآثار النفسية المترتبة على هذه الزيارة في نفس المريض وآله.

ويروي أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن ابنة للنبي (ﷺ) أرسلت إليه: نحسب أن ابنتي قد حُضِرَت فأشهدنا. فأرسل إليها السلام، ويقول: إن لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده مسمى، فلتحتسب ولتصبر. فأرسلت تقسم

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٢٥.

(٢) صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٨٩. وفي رواية"مخرفة"والمخرفة هي سكة بين صفين من نخل يخترف من أيهما شاء، أي يجتني. أي أنه على طريق تؤديه إلى طريق الجنة.، أما خرفة الجنة فهي اسم ما يخترف من النخل حتى يدرك. (الشارح)

عليه، فقام النبي (ﷺ) وقمنا، فرُفِع الصبي في حجر النبي (ﷺ) ونفسه تقمْقع ففاضت عينا النبي، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء"[1].

الموقف شديد: على ابنة رسول الله (ﷺ) التي تشاهد ابنتها تحتضر، وعلى الرسول الذي يرى حفيدته في طور النهاية، ولا يقول إلا ما يرضي الله تعالى، مقولة تعبر عن عمق الإيمان والتسليم، وفي نفس الأمر، تهوّن على النفوس حقيقة الموت، وفراق الأحبة، يقول: إن لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده مسمى. فالابنة عطية الله، والله يسترد عطيته. وعندما توضع الطفلة في حجر النبي، تفيض عيناه دمعًا. ثم ينطق بالحكمة، بأن حزننا على فراق أحبتنا إنما هو رحمة من رحمات الله، ولابد من الترحم عليهم، فإن الله لا يرحم إلا الرحماء. توجيه نبوي سام، بأن نتراحم فيما بيننا، ونرحم الصغير والمريض.

إن أبرز ما يستوقفنا في الموقف السابق: الحكمة العامة التي تنثال من المصطفى، دون اختصاص بالموقف نفسه، فكأن الرسول يستحضر عامة الناس، يوجههم، يحوّل الموقف الخاص، شديد الخصوصية به وبابنته إلى موقف عام، فهو موقف متكرر ضمن مواقف الابتلاء للبشرية.

نفس الطريقة نلمسها مع حبيبنا (ﷺ) على فراش الموت، قال عبد الله بن مسعود: دخلت على رسول الله (ﷺ) وهو يوعك وعكًا شديدًا، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا، فقال رسول الله: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم. فقلت: ذلك أن لك أجرين. فقال رسول الله (ﷺ): أجل. ثم قال رسول الله: ما من مسلم يصيبه أذى: مرض فما سواه، إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها"[2]

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٢٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٢٧.

إنه المصطفى قدوتنا، يصاب بألمين، ضعف ألمنا، يتحمل ويصبر، ولا ينقل لنا الراوي إلا كلمة"توعك"وهي تدل على إحساس الراوي بألم المصطفى، ومع ذلك فالرسول قادر على التحمل، ويحوّل الألم من الخاص الذاتي إلى العام الذي يهم كل المسلمين. إن المرض والألم سبيلان لتكفير الذنب، مثلما تتساقط أوراق الشجر، حتى يلقى المسلم ربه خالي الذنب أو بأقل الذنب. والقاسم المشترك في رؤية الرسول هذا المعبر الرقيق بين الدنيا والآخرة، فعلى قدر هموم الدنيا، يكون الهم جسرًا للآخرة، إذا أحسن المسلم فهمه.

- الرحمة بالأرملة والمسكين:

الأرملة هي المرأة التي فقدت زوجها بالموت، وأصبحت تواجه الحياة بمفردها، من أجل الإنفاق على أولادها[1]. أما المسكين فهو: من لا شيء له أو له ما لا يكفيه أو أسكنه الفقر أي: قلل حركته والذليل والضعيف [2]

عن صفوان بن سليم، يرفعه إلى النبي (ﷺ)، قال:"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل"وفي رواية عن أبي هريرة – ﷺ –، قال رسول الله (ﷺ):"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله. وأحسبه قال: كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر"[3]

من أروع صور الرحمة من يرحم المرأة الأرملة، فهي ضعيفة لكونها امرأة في مواجهة الدنيا، وضعيفة لأنها بلا زوج يحميها، وضعيفة لأنها مسؤولة الرعاية على أبنائها الأيتام. ومن يسع من أجل مساعدة هذه الأرملة، ويحميها من

---

(١) سميت أرملة لما يحصل لها من الأرمال وهو الفقر وذهاب الزاد لفقد الزوج. فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد للبخاري، ج١، ص٢١٩.

(٢) القاموس المحيط، ص١٥٥٦.

(٣) صحيح البخاري، ج٤ ص٩٣.

وعورات الحياة وفتنها، فهو مثاب بأعلى درجات المثوبة في عمل الطاعات: ثواب المجاهد في سبيل الله، وثواب الصائم النهار، القائم الليل. تساوى من يكد على المرأة والمسكين، بفعل من يعمل الطاعات في أجلّ صورها وأعلاها. وهذا يتفق مع المنظومة الإسلامية التي تعلي شأن العمل والكدّ، فالعامل المكد المنهك خير من العابد العاطل. وكذلك الحال مع المسكين، الذي ضاقت به سبل الحياة في الدنيا، فتكون مساعدته لها ثواب عظيم. إن الجمع بين الأرملة والمسكين في مستوى الحاجة، وفي مستوى الفضل والمثوبة يعبّر عن أهمية احتياج الصنفين إلى المساعدة، وأن كليهما في مستوى اجتماعي واحد، فالطفل اليتيم يساوي المسكين، لأنه طفل ولأنه بلا أب.

ومن وجه آخر، فإن بذل الفرد المال لمساعدة الأرملة والمسكين، يدل على طيبة نفس الباذل لأن:"المال شقيق الروح، وفي بذله مخالفة النفس ومطالبة رضى الرب"[1].

- الرحمة بالخادم:

فأنس بن مالك – ﷺ – يقول:"لما قدم رسول إلى المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بنا إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله إن أنسًا غلام كيّس. قال: فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لم تصنع ها هكذا؟"[2]

يروي أنس – ﷺ – قال: خدمت النبي ﷺ) عشر سنين، فما قال لي أفٍ ولا: لمَ صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ؟"[3].

---

(١) فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد للبخاري، ج١، ص٢١٩.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٣.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٨. وفي رواية أنه خدمه"تسع سنين)، انظر شمائل الرسول، ص٦٣، يقول أنس:"لقد خدمته تسع سنين..."

أنس خادم المصطفى، يصف بجمل معدودة حاله مع الرسول: لا يحاسبه على ما فعل، وما لم يفعل. ولأن أنس كان واعيًا بطباع الرسول، فقد كان مجتهدًا في طاعته، لا يتوانى عن خدمته، ويبادر إلى الفعل.

وعن أبي أمامة – ﷺ – قال: أقبل النبي (ﷺ) معه غلامان، فوهب أحدهما لعلي وقال: لا تضربه فإني نهيت عن ضرب أهل الصلاة، وإني رأيته يصلي منذ أقبلنا"[(١)].

وقد أعطى الرسول (ﷺ) أبا ذر غلامًا وقال: استوص به معروفًا فأعتقه، فقال: ما فعل؟ قال: أمرتني أن أستوصي به خيرًا فأعتقته"[(٢)]

يأتي التوجيه النبوي لأصحابه بالخدم بأن بألا يضربوهم، وأن يعاملهم المعاملة الطيبة، وقد أحسن أبو ذر إلى خادمه إكرامًا للرسول الذي وهبه له.

ويحكي أنس:"كان رسول الله (ﷺ) أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب – وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله (ﷺ) – فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله (ﷺ) قد قبض بقفاي من ورائي. قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أُنيس ذهبت حيث أمرتك؟ فقلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله"[(٣)].

هذا الخلق الرحيم بالخدم فيه إشارتان: الأولى: إلى من يقوم بأمر الخدمة والعمل عند الآخرين أن يتخلق بأخلاق الإسلام في الطاعة لسيدة أو لرئيسه،

---

(١) فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد، ج١، ص ٢٥٣.

(٢) فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد، ج١، ص ٢٥٣.

(٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ص ٦٣، ورواه أبو داود في سننه، دار الجيل، بيروت، ج٤، ص٢٤٧، باب الأدب، وزاد: قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين، ما علمت قال لشيء صنعت: لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت: هلا فعلت كذا وكذا.

فيفهم ما يريد، ويسرع إلى العمل دون تكاسل. والإشارة الثانية: إلى رب العمل أو صاحب الدار، أن يحسن إلى من يعمل عنده، فإن الإحسان يمتلك القلوب، والرحمة أيسر السبل للتعليم.

- الرحمة أساس كل تعامل إنساني:

ليست الرحمة أفعالاً بالجوارح: عطاء وبذل فقط، بل يسبق ذلك القول. وبالأدق: حسن الخلق، فالمسلم لن يسع الناس بماله، وما هو بمستطيع، وإنما يسعهم بخلقه الطيب. والخلق الطيب مفتاحه اللسان الطيب، ثم ما يتلوه من عمل وسلوك. لذا، نجد حسن الخلق يحتل المساحة الأكبر في وصايا الرسول، بل نقول إن حسن الخلق هو مفتاح البر كله.

عن أنس بن مالك – ﷺ – قال: لم يكن النبي (ﷺ) سبابًا ولا فحاشًا ولا لعّانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له تربَ جبينُه"[1]

فالسب والفحش واللعان هي أكثر الصفات القولية معيبًا، والناس مهما تطاولوا على بعضهم، ولكن يظل من عفّ لسانه موضع احترامهم، لأن الأدب سمة لا خلاف عليها، وحفظ اللسان من الأدب. والحديث يصف لسان الرسول، خاليًا من مظاهر فحش القول، وهكذا كل نبي مبعوث.

وعن مسروق قال: كنا جلوسًا عند عبد الله بن عمرو يحدثنا إذ قال: لم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقًا"[2].

هذه شهادة من كانوا حول الرسول، نفى الفحش والتفحش، وذكر مضاده:

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٧. وذكر المحقق: ترب جبينه: كلمة تقولها العرب جرت على ألسنتهم، كقولهم رغم أنفه، ولا يراد معناهما.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٧.

حسن الخلق، وحسن الخلق أشمل لأنه يشمل مختلف جوانب الخلق الطيب.

- الامتناع عن القول الزور وذم كل مدع وكذاب:

جعل المصطفى (ﷺ) قول الزور وشهادة الزور من أكبر الكبائر. وكرر التحذير منها مرات. إن قول الزور جزء أساسي من مفهوم الرحمة الشامل، لأنه لا معنى للرحمة مع إنسان ظلم بشهادة زور في محكمة أو قضية أو ميراث أو نحو ذلك. فقول الزور ذو بعد مجتمعي، وليس فرديًا فقط، فمن شهد الزور، أصاب ذنبًا كبيرًا، فظلم نفسه، وتسبب في الظلم لغيره. ومن هنا جاء التحذير.

وقد جاز – شرعًا – التشهير بشاهد الزور بين الناس، وهذا أمر لا فضيحة فيه، بقدر ما هو رد اجتماعي لفاعل الشهادة الزور، فمن تيقن أن ولي الأمر أو القاضي سيشهر به، فسيحسب له ألف حساب، ونفس الأمر ينطبق على المتعالم الذي يفتي الناس بغير العلم، وما يترتب على الناس من ضرر لفتواه، وكذلك القواد الذي يزين الزنا، والقاضي الجائر، وخائن الأمانة [1]. ونسجل أن الأشخاص الخمسة الجائز التشهير بهم إنما يرتكبون مفاسد عظيمة، ومن آثارها نشر الظلم، ومنع الرحمة، فالقاضي الجائر أليس يظلم فردًا ويمنعه رحمة، وخائن الأمانة يأكل حقوقًا وودائع، فيضيع الأمانات بين الناس.

- تحريم وأد البنات:

فعن المغيرة بن شعبة – ﷺ – عن النبي (ﷺ) قال: إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات، وكرّه إليكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال"[2]

---

(١) انظر: حكم التشهير بالمسلم في الفقه الإسلامي، د. عبد الرحمن صالح الغفيلي، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٤٦، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص٢٨٠ – ٢٨٥.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٧.

اشتمل الحديث على مجموعة من الآداب الاجتماعية: عقوق الأمهات، وهذا أشد لأن الأم لها مكانة خاصة في الإسلام، لحملها وإرضاعها ورعايتها وليدها حتى صار كبيرًا. كما يحذر الحديث من البخل وكثرة الطلب، ثم يحذر من وأد البنات، وهو قتلهن وهن أحياء مخافة الفقر. وقد قال الله تعالى: ﴿وإذا المؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت﴾[1]. وقد"كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل المؤودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن القاتل إذاً؟ وقيل: إذا سئلت أي طالبت بدمها"[2].

إن قتل البنات وهن صغار يعد من أكبر الكبائر في الإسلام، وقد استخدم المصطفى لفظة وأد، وهي غاية في الدقة، فالوأد قتل النفس الحية أي: "دَفَنها في القبر وهي حية"[3].

والحديث السابق يشمل أيضًا أدبين اجتماعيين مهمين: الأول: قيل وقال، ويقصد بها جملة المزالق اللسانية التي تسبب الضغينة بين الناس مثل النميمة والفتنة والغيبة وترديد الإشاعات. والثاني: كثرة السؤال: ويقصد به طلب الحاجة، وعن إضاعة المال ذكر السرخسي"وفي الإفساد إضاعة المال ثم الحاصل أنه يحرم على المرء فيما اكتسبه من الحلال الإفساد والسرف والخيلاء والتفاخر والتكاثر"[4]

---

(١) سورة التكوير، (الآيتان ٨، ٩)

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٦٧.

(٣) لسان العرب، ج١٥، ص٢٨٧.

(٤) المبسوط، أبو بكر السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ص٤٥٥٤.

- تحمّل الأذى وكظم الغيظ:

يستطيع المرء أن يرحم، ويتراحم، ولكن هل الشخص الرحيم هو هكذا فقط؟ ما باله لو تعرّض للأذى؟ وتطاول الآخرين؟ ما باله لو كان مظلومًا؟

فعن أنس بن مالك – ﷺ –"كنت أمشي مع النبي (ﷺ) وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذًا شديدًا، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله (ﷺ)، فإذا قد أثّرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال يا مُحَمَّد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك. قال: فالتفت إليه رسول الله ﷺ) فضحك ثم أمر له بعطاء"[1].

سامح الرسول الأعظم هذا الأعرابي الذي تصرف مع قائد وزعيم المسلمين بهذه الطريقة الفجّة، ولو أراد النبي أن يحاسبه على هذه الفعلة لحاسبه، ولكنه سامحه، ففي الأعراب غلظة، غلظة من واقع البادية ذات الصحراء القاحلة، التي انعكست على الطباع والتعاملات. ويبدو أن الأعرابي حديث عهد بالإسلام، لذا لم يتشرب بعد تعاليمه، ولم يرضع من شمائله، فليس الأمر هنا على سبيل العقوبة، بقدر ما هو على سبيل الدعوة وتأليف القلوب، وتربيتها، فالأعرابي طالب محمدًا من مال الله، وهو يعلم أن الإسلام يساوي بين الناس، وأن مال الله هو حصيلة الزكوات والفيء، ويعلم قبل ذلك أنه ليس مال النبي، فطالب بحقه، واحترم النبي هذا الفهم [2]، وتركه لعل رحمة النبي (ﷺ) تعطيه درسًا في التراحم وحسن التعامل

---

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ص٦٥. وفي رواية أخرى أن الأعرابي جذبه بحُجزته فخدشه، فهمّوا به، فقال الرسول: دعوه ثم أعطاه.

(٢) جاء في سنن أبي داود زيادة على نص الحديث:... فقال له الأعرابي (بعدما جبذه): احمل لي على بعيريّ هذين، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي: لا وأستغفر الله (ثلاثًا)، لا أحمل لك حتى تقيدني، من جبذتك التي جبذتني، فكل ذلك لا يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، فذكر الحديث، قال: ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على بعيريه هذين: على بعير شعير ن وعلى الآخر تمرًا، ثم التفت إلينا (الصحابة): فقال: انصرفوا على بركة الله. ج٤، ص٢٤٨.

مع البشر فهو القائل ﷺ):"إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة"[1].

وبدا الإيذاء في موقف أشد من هذا:

عن زيد بن أرقم – رضي الله عنه – قال:"كان رجل من الأنصار يدخل على رسول الله (ﷺ) ويأتمنه، وإنه عقدَ له عقدًا وألقاه في بئر، فصرع ذلك رسول الله (ﷺ)، فأتاه ملكان يعودانه فأخبراه أن فلانًا عقد له عقدًا وهي في بئر فلان، ولقد اصفرّ الماء من شدة عقده، فأرسل النبي فاستخرج العقد، فوجد الماء قد اصفرّ، فحل العقد ونام النبي (ﷺ). فلقد رأيت الرجل بعد ذلك يدخل على النبي فما رأيته في وجه النبي حتى مات"[2].

أبرز ما يسترعي انتباهنا في هذه القصة: أن الرسول (ﷺ) لم يكتف بالمسامحة للفاعل المخطئ، بل تعامل معه بعد ذلك دون أن يشعره بعظم ما فعل، وقد تعدّل حال المخطئ لأنه لم يكرر الخطأ ثانية فقد علم أن محمدًا مرسل ومؤيد من ربه، فاكتسب الرسول فؤاده، وقد عبّر راوي الحديث عن ذلك بقوله:"فلقد رأيت الرجل بعد ذلك يدخل على النبي فما رأيته في وجه النبي حتى مات"وهكذا تكون الرحمة المهداة، محبةً وصفحًا وتوادًا وحرصًا على جذب القلوب وتطهيرها.

---

(١) سنن أبي داود، ج٤، ص٢٤٨.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ص٦٦. وقد أشار ابن كثير – تعقيبًا على الحديث –:"قلتُ: والمشهور في الصحيح: أن لبيد بن الأعصم اليهودي هو الذي سحر النبي (ﷺ)في مشط ومشاطة (الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عن التسريح بالمشط) في جف (وعاء الطلع وهو أول ما يبدو من ثمر النخل) طلعة ذكَر تحت بئر ذروان، وأن الحال استمر نحو ستة أشهر، حتى أنزل سورتي المعوذتين. ويقال: إن آياتهما إحدى عشرة آية، وأن عقد ذلك الذي سحر فيه كان إحدى عشرة عقدة. ا.هـ

- في زمن الفتنة تختفي الرحمة:

عن أبي هريرة ﷺ – قال:"قال رسول الله (ﷺ): يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل، القتل"[١].

الحديث يقدّم وجهًا من وجوه المستقبل، أو بالأدق نهاية الزمان، والمعبر عنه بالتعبير:"يتقارب الزمان"، أي يقترب الزمان من نهايته، وتقترب الساعة،

ستختفي الرحمة والتراحم، وقد عبّر عنها بذكر متضاداتها: الشح ومتضاده الكرم، والكرم جزء من أجزاء التراحم، ينقص العمل، والعمل المقصود: الصالح والطيب، والرحمة جزء منه، والقتل وهو الصورة الشنيعة المضادة للرحمة، فالقتل قمة القسوة، عنف جسدي، ناتج عن غل وحقد. والقتل المقصود هو القتل الغيلة، وقد أجاد الهدي النبي في التعبير عنه بلفظة"الهرج"المعبر عن الفوضى في شدتها.

- الرحمة القولية واتقاء الفحش:

عن عائشة – ﷺ –: أن رجلاً استأذن على النبي (ﷺ) فلما رآه، قال: بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة. فلما جلس تطلق النبي (ﷺ) في وجهه، وانبسط إليه. فلما انطلق الرجل، قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل، قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه. فقال رسول الله (ﷺ): يا عائشة متى عهدتني فاحشًا؟ إن شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره"[٢].

وعن أنس بن مالك – ﷺ –"أن النبي ﷺ) رأى على رجل صفرة فكرهها. قال: فلما قام قال: لو أمرتم هذا أن يغسل عنه هذه الصفرة؟ قال: وكان لا يكاد يواجه أحدًا بشيء يكرهه"[٣].

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٨.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٧.

(٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٤.

إذا كان النصح المباشر قد يترك في النفس شيئًا، رغم أنه سيصدر عن الرحمة المهداة، الذي يتكلم بأرق عبارة، وأخف كلمة، ولكنه ﷺ) حريص على أي نفس أن يكون فيها ما يضايقها، فيفضل أن يكون هذا النصح منقولاً إلى المنصوح عبر آخرين، الأمر بسيط: إنها صفرة في الوجه، وستزال بالماء، ومن الممكن السكوت عن ذلك من قبل الرسول، ولكنه فضل أن ينصح فهو حريص على أن يرى أصحابه في أجمل صورة.

وتزداد محبة الرسول لأصحابه، ولعموم الناس حوله، فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله (ﷺ) قال: لا يبلغني أحد عن أحد شيئًا، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر [1].

وعن أنس أن رجلاً قال لرسول الله: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال رسول الله (ﷺ): يا أيها الناس قولوا لا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا مُحَمَّد بن عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله"

وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: قال رسول الله:"لا تطروني كما أطْرَت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله"[2]

هذان القولان يعبران عن التواضع في غايته، إنهما يؤسسان علاقة من نوع مختلف بينه وبين الناس، علاقة محبة وصفاء، يرفض أن يلقبه الناس بسيدنا أو ابن سيدنا، يقرر لهم الحقيقة إنه: مُحَمَّد بن عبد الله، والشرف الذي ناله: عبد الله ورسوله، فما أمر أعلى من ذلك. ألا فليتعظ الجبابرة في الأرض، أمام تواضعه (صلى الله عليه وسلم).

---

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص٧٧.

وعن أنس – ﷺ – قال:"لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله. قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك"[١].

- شكر الناس على معروفهم:

وهو أمر أوجبه الإسلام، اعترافًا بما يقدمه الآخرون من أعمال، وتقديرًا لهم على كرمهم ورحمتهم، وتشجيعًا لهم على مواصلة هذه الأعمال، فمن وجد الشكر، تحفّز للمزيد.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي (ﷺ): قال: لا يشكر الله من لا يشكر الناس"فهذا الحديث يشير إلى معنى عميق، إنساني النزعة، إيماني العقيدة، إسلامي السلوك ألا وهو:"من ذا الذي ليس مغمورًا في نعم الله، لكن الناس يتفاوتون بطبائعهم، فمنهم من يعرف قدر النعمة ويدركها ويشكر عليها، بل يكفرها، لا سيما إذا كانت النعمة كفَتْهم عما يطغيهم في دينهم أو دنياهم، فمن كان بطبعه شاكرًا، يشكر الله ويشكر الناس، ومن لا يعرف قدر الله وقدر نعمته، فلا يشكر الله، فكذلك من لا يعرف قدر معروف خلقه، فلا يشكرهم"[٢].

ومن الوجهة النفسية فإن الشكر للمعطي أو الباذل يؤدي إلى تعزيز هذا السلوك، وهو"الشرط الذي يؤدي فيه حدوث السلوك إلى توابع إيجابية أو إلى إزالة توابع سلبية الشيء الذي يترتب عليه زيادة أفعال حدوث ذلك السلوك في المستقبل[٣].

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى مُحَمَّد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤١٣هـ، ص١٧٨، وقال حديث صحيح.

(٢) فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد، ج١، ص٣٠٣، ٣٠٤.

(٣) تعديل السلوك الإنساني، جمال الخطيب، ط٣، ١٩٩٤، على نفقة المؤلف، دون ناشر، ص١٣٧.

- المسارعة في التراحم والنجدة:

فعن ثابت بن أنس – ﷺ –، قال:"كان النبي (ﷺ)أحسن الناس وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي (ﷺ) قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تراعوا. وهو على فرس لأبي طلحة عريٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرًا (أي وجد الفرس جوادًا سهلاً كالبحر) أو إنه لبحر"[1]، وعن جابر ﷺ يقول:"ما سئل النبي (ﷺ)عن شيء قط، فقال: لا"[2]

وهكذا كان رسول الله، وسيد الناس، وزعيمهم، وأول ما يخدمهم، متفانيًا من أجلهم. يتقدمهم وقت الضيق، ويتأخر عنهم وقت المغنم، إلا إذا كان يتولى القسمة بينهم.

- تبسمه (ﷺ) مع الناس:

إن المزاح والتبسم من أهم علامات التراحم بين الناس، فهو يعبر عن المودة التي في القلوب، ولا يأتي مزاح صادق إلا من قلب صاف رحيم، يحب أن يرى الابتسامة على الوجوه، وتعكس ما في الأفئدة من تحاب.

يذكر أن"رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يُهدي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) هدية من البادية، فيجهّزه النبي (ﷺ)إذا أراد أن يخرج، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم):"إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه"(أي هو المقيم في البادية، ونحن حاضرو المدينة له)"وكان (ﷺ) يحبه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه النبي يومًا، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني. فالتفت، فعرف

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٧.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٧.

النبي (ﷺ)، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي، حين عرفه، فجعل النبي (ﷺ) يقول: من يشتري هذا العبد؟ فقال: يا رسول الله ! إذًا والله تجدني كاسدًا. فقال النبي (ﷺ): ولكن عند الله لست بكاسد. أو قال: أنت عند الله غالٍ"[1]

في الحديث الأول، نرى عمق العلاقة بين هذا الرجل البدوي وبين المصطفى، فالرجل يهدي الرسول حين قدومه من البادية، والرسول يزوده بما يحتاجه عند سفره، إنها علاقة حميمية، لم يختص بها هذا الرجل، بل كانت بين الرسول وعموم الصحابة والناس. والمقولة التي ذكرها الرسول عنه، تكشف أبعاد هذه العلاقة التي تجعل أهل البادية مكملان لبعضهما، دون ترفع من هذا أو سخرية من ذاك. وفي الموقف الثاني، نرى الرسول وهو يداعب الرجل، فيحتضنه ثم يبيعه، ويختتم الموقف بتقرير حقيقة أن الناس ليسوا بأشكالهم بل بقلوبهم وأعمالهم. إنها مداعبات مؤسسة على تراحم وتواضع.

وعن الحسن، قال: أتت عجوز إلى النبي (ﷺ)، فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: يا أم فلان! إن الجنة لا تدخلها عجوز. قال: فولت تبكي. فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارًا. عربًا أترابًا﴾ [2].

الموقف طريف، ويعبر عن حجم المداعبة التي كان يلجأ إليها المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، ومن خلال هذه المداعبات تتعمق معان إيمانية سامية، وتستحضر الآيات القرآنية بتفسير حي يغشى القلوب. وعن أبي هريرة – ﷺ، قالوا: يا رسول الله ! إنك تداعبنا. قال: نعم، غير أني لا أقول إلا حقًا"[3].

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى مُحَمَّد بن سورة الترمذي، ص ١٢٧، ١٢٨. ذكر أنه حديث صحيح.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: (٣٥– ٣٧)، والحديث صحيح من المرجع السابق، ص١٢٨.

(٣) مختصر الشمائل المحمدية، الترمذي، ص١٢٦.

- كظم الغيظ وقت الغضب:

تبدو الرحمة أكثر وأكمل عندما يتحكم المرء في غضبه، ففي ساعة الغضب تتلاشى كثير من الآداب القولية والسلوكية، وقد يخطئ الغاضب وقد يرتكب ما هو أشد إثمًا كالضرب والجرح والقتل. وقد كان الغضب في شدته وسورته في بيئة بدوية، لا يزال الناس على سجاياهم، وتغلب الغريزة النفوس، وتحدث الحروب بين القبائل لعوامل تافهة من الممكن استدراك أسبابها. وقد جاءت أحاديث الرسول ومواقفه حاسمة في منع مظاهر الغضب وأسبابه، وتدفع بكظم الغيظ، وتوعد الكاظم غيظه وهو قادر على إنفاذه برضا الله وجناته. يقول الرسول (ﷺ):"من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عزوجل على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره الله من الحور ما شاء"[1]

فهذا الكاظم غيظه: يدعى على رؤوس الناس وفي مشهد تجمعهم يوم القيامة ليختار ما يشاء ويرغب من الحور العين. الثواب عظيم: مرضاة الله، والمرضاة تساوي مكانة عظمى عند المولى تعالى، ومكانة طيبة بين الناس، ثم الجزاء الحسي: الزواج من الحور العين.

وقال رسول الله (ﷺ): ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب"[2].

فعلى عادة الرسول في التربية، يصحح المفاهيم والمصطلحات، يسأل فيعطيه الصحابة مفهومهم الدنيوي، فيعيد (ﷺ) صياغة المفهوم من المنظور الإسلامي. فالشخص ذو الصرعة: هو ذو القوة الذي لا يتغلب أحد من الرجال عليه (المفهوم

---

(١) سنن أبي داود، ج٤، ص٢٤٨.

(٢) سنن أبي داود، ج٤، ص٢٤٩.

الدنيوي)، وفي الهدي النبوي: هو من يملك نفسه ساعة الغضب أي يصرع سورة غضبه ويكبحها.

إن ما فعله الرسول من خلال طرح السؤال، واستجلاء آراء من حوله وتوجهاتهم، ثم إعادة تعديل هذه التوجهات في المنظور الإسلامي، يسمى – في منظور علم النفس –"تعديل السلوك اصطناعيًا"، بأن يتكلف المعلم أو المربي سؤالا أو موقفًا، ويستغله من أجل توجيه الفكر إلى زاوية جديدة، وعندما يتم تحفيز التفكير بطرح رؤى مغايرة، ومن منظور قيمي وأخلاقي عظيم نابع من الدين، فيسكون دافعًا لتغيير التفكير ومن ثم تعديل السلوك، وبالطبع لن يتعدل السلوك بشكل مباشر وفوري، وإنما سيكون تدريجيًا، مرة ومرة، حتى يتوجه يصبح الأمر ضمن طبائع النفس البشرية [1].

وعن معاذ بن جبل – ﷺ – قال: استب رجلان عند النبي (ﷺ)، فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى خُيّل إليّ أن أنفه يتمرّع من شدة غضبه، فقال النبي: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب؟ فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم. قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضبًا"[2].

أخبرنا الرسول بطريقة ميسرة للانتصار على الغضب: ذكر الدعاء المتقدم،

---

(١) انظر: تعديل السلوك الإنساني، جمال الخطيب، مرجع سابق ن ص١٣٩. ويجدر بالذكر أن هناك ما يسمى بتعديل السلوك طبيعيًا، وهو يرتبط بالسؤال أو الموقف الذي يستدعي إجابة مباشرة منطقية، فإذا سب رجل آخر، عند مراجعة المخطئ سيقر ويعترف – إذا كان عاقلاً رزينًا – أنه مخطئ، وأن الصواب عدم السب، وبالتالي سيكون الأمر متوقفًا على جانب التذكرة فقط. ص١٣٨.

(٢) سنن أبي داود، ج٤، ص٢٤٩.

وعندما يردد المرء المسلم – وقت غضبه – هذا الدعاء، ويعي ما يقول فهو:

- سينتقل أولاً من مستوى نفسي ثائر، إلى مستوى نفسي أقل بذكره الله تعالى، والاستعاذة من الشيطان الرجيم.
- سيعلم أن الشيطان سبب في سورته، وبالتالي ستتحكم عاطفته الدينية في كبح جماح نفسه، ومواجهة شيطانه.

ومع ذلك فإن الغاضب في الحديث، أبى أن يردد هذه الكلمات البسيطة، لأن الغضب لا يزال يملكه، أي هو في وضع نفسي شديد الضعف، غير قادر على السيطرة على نار غضبه.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله:"علموا أولادكم، ويسّروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت"[1].

على قلة كلمات هذا الحديث، يتسع فضاء معانيه لحكم وإرشادات متعددة، وهكذا البلاغة: كلما ضاقت العبارة اتسعت الرؤية. فالحديث به توجيهات إلى:

- تعليم الأبناء.
- اليسر لا العسر.
- السكوت وقت الغضب.

هذه التوجيهات تأتي في سياقين: السياق الأول: ما جاء في مطلع الحديث من الأمر بتعليم الأولاد، ويكون اليسر مطلوبًا في تعليمهم؛ تحبيبًا لهم في آبائهم، وفيما يعلّمه الآباء، حتى لا ينفر الولد مما يقوله الأب أو الأم، فكلما وجد الابن أو الابنة الرفق من الوالدين كان أكثر تعلقًا بهما، وحبًا فيما يتلقاه منهما، وإن واقع الأمر في

(١) فضل الله الصمد، في شرح الأدب المفرد، ج١، ص٣٣١. وذكر أن الحديث أخرجه أحمد.

حياتنا يشي بأن الكثير من الوالدين يشددون ويغلظون في تربيتهم للأبناء، فتكون الثمرة على النقيض؛ نفرة الأبناء ليس مما يقوله الآباء فحسب، بل لتوجيههم بشكل كامل، فإذا كان الوالدان ملتزمين بالدين وأحكامه، تكون النتيجة: أبناء وبنات أبعد ما يكون عن طريق الدين، والسبب الشدة في التربية والقسوة في التعليم، خاصة عند الخطأ. وهذا لا ينفي اللجوء للحزم، ولكن شتان ما بين الحزم والضبط وما بين القسوة والعنف. وقد جاءت بقية الحديث تعزز هذا التوجيه الأسري: فالتيسير أساس لا التعسير، والغضب مفتاحه السكوت لا النطق، وفي هذين التوجيهين، الكثير من الأمور التربوية التي تغذي مناحي تربية الأبناء، فما أكثر ما يغضب الوالدان ويلفظان بكلام جارح وبعضه كلام خارج.

السياق الثاني: أن يكون الحديث على العموم في كل شؤوننا: مع الكبار والصغار، في ميادين التربية، وفي مواقف الحياة المختلفة خاصة أمر الغضب وخروج المسلم عن طوره، أي"علّموا الناس ما يلزم من أمر دينهم، وأن الغضب فوران دم القلب أو العرق لدفع مؤذيات قبل وقوعها والانتقام بعد وقوعها، وهو يكون من نزعات الشيطان يُخرج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح"[1].

فمن المهم علاج النفس من أدرانها وعللها، وقد نهانا الإسلام عن الغضب الشديد والانفعال الزائد، فهي عامل مسبب لكثير من الأمراض النفسية والعصبية، والتي من الممكن أن تتطور إلى أمراض عضوية. وقد وضع الإسلام – عبر تعاليمه –

(١) فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد، ج١، ص ٣٣٥، ٣٣٦. ويضيف الشارح:"هذه كلها آثار سوء الخلق وربما بلغ درجة الكفر، ولا يغضب إلا من لا يذكر أن الأمر كله لله، وينسى أن الأفعال عن خلق الله"ويضيف حكمًا فقهيًا: إن"الغضبان مكلف بالسكوت حال غضبه فيكون حينئذ مؤاخذ إذا تكلم"ص٣٣٦.

نظامًا محكمًا من القيم مثل: الصبر والرفق والعفو عند المقدرة والخشوع والخضوع لله، والترابط والتراحم بشكل متوازن؛ تربية للنفوس [١].

- النهي عن الظلم:

فعن أبي ذر – ﷺ – عن النبي (ﷺ) فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا.."[٢]. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ﷺ) قال:"اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"[٣] وعن أبي موسى، قال رسول الله (ﷺ):"إن الله عز وجل يملي الظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ:﴿وكذلك إذا أخذ ربك القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[٤]

فالظلم هو الوجه المضاد، الأشد في تضاده للرحمة، فإذا كان متضاد الظلم العدل، فإن الرحمة من مشتملات العدل، لأن العدل هو إعطاء الحقوق لأصحابها ومجازاة الظالمين ومحاسبة المتجبرين، أي أن العدالة لو طبقت لتحققت الرحمة بالعباد وانمحى الظلم. ومن هذا جاءت الأحاديث المتقدمة تشدد على نفي الظلم، وردع الظالمين، وقد يفلت الظالم من عقوبات الدنيا، ولكنه لن يفلت من عقاب الله، فإذا أخذه الله لن يفلته.

---

(١) كيف تنجح في معاملة الآخرين، د. محمد علي قرني، المركز العربي للنشر والتوزيع،(إسكندرية – القاهرة)، د. ت، ص٢٣٨– ٢٤٠.

(٢) صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩٩٤.

(٣) صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٩٦.

(٤) صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩٩٨.

- الرفق في التعاملات البشرية كافة:

ويقصد به: التعامل مع المواقف والأشخاص بشكل مترفق، دون عنف أو غلظة، وقد ذُكِرَ من قبل أن الرفق أحد أوجه الرحمة أو أحد أجزائها.

فعن جرير، عن النبي (ﷺ) قال:"من يحرم الرفق يحرم الخير"وعن عائشة – ﷺ – أن رسول الله قال: يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لايعطي على العنف، وما لايعطي على ما سواه"[1] وفي التوجيه النبوي أن الرفق قاعدة أساسية في الإسلام، وأن الشخص المترفق في الأمور مثاب على ما يفعل، فالله يعطي الشخص الثواب على قضائه أمرًا بالرفق أكثر مما يعطي من يقضي الأمر نفسه بالشدة. وفي هذا إرشاد لمن يتشدد في أمور الحياة ظانًا أن التشدد من الدين. ويكون السؤال: إذا كان الأمر يُقضى بالرفق واللين، فلماذا نلجأ للعنف والتشديد؟

وفي حديث آخر، جعل الرسول (ﷺ) الرفق في الذبح والقتل، فعن أبي يعلى شداد بن أوس – ﷺ – عن رسول الله (ﷺ) قال:"إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته"[2].

فالمعنى: إن الله كتب، أي فرض، الإحسان إلى كل شيء، وفي كل شيء وفي الولاية على كل شيء [3]. فالإحسان ضد الإساءة، ومنه الحسن أي الجمال [4]، وفي جميع الأحوال، فإن الإحسان في الحديث يعني الترفق والتعامل الطيب الجميل. وقد

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٠٣، ٢٠٠٤.

(٢) صحيح مسلم، الحديث ١٩٥٥.

(٣) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا في جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، ص ١٨٧.

(٤) القاموس المحيط، ص١٥٣٥، مادة حسن.

أمر الله تعالى به: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1]، ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[2].

فالأمر بالإحسان للوجوب، وفيه كمال الخير، فالإحسان ترك المحرمات والانتهاء منها، والصبر على المقدورات، والإحسان في معاملة الخلق ومعاشرتهم [3]، وفي قتل النفس البشرية يجب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه، وقد أوجب الشارع أن يتم ضرب الرقاب في القتال، فهو عين الموضع الذي يكون فيه أسهل الضرب على المقتول، وهو فوق العظم ودون الدماغ، وقد أوصى دريد بن الصمة أن يقتل هكذا [4]).

فعن أنس بن مالك – ﷺ – أن أعرابيًا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله (ﷺ):"لا تزرموه، ثم دعا بدلو من ماء فصبّ عليه"[5]

الفعلة شديدة: تبول في المسجد المطهر من أعرابي. ورد الفعل من الصحابة: قاموا إليه لينهروه ويمنعوه وقد يضربوه على فعلته، والأعرابي مسلم، ويبدو أنه حديث الإسلام، لأنه لم يستوعب معنى طهارة المسجد، بيت العبادة. ورد فعل المصطفى (ﷺ): قال: لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله. أي: اتركوه حتى يكمل، ثم أعطى الحكم الفقهي أن يضعوا على البول ماء كثيرًا من دلو، حتى يذهب نجاسة ورائحة البول، ويطهر المكان، هذا حكمه.

فمع أشد حالات النجاسة، كان الرفق: بالأعرابي تحبيبًا له في الدين، بأنه دين

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٥).

(٣) جامع العلوم والحكم، ص١٨٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٨٩.

(٥) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٦.

الرفق في النصح وفي معالجة الأمر.

وعن أنس بن مالك – ﷺ – قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا صافح أو صافحه رجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، وإن استقبله بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه، ولا يُرى مقدّمًا ركبتيه بين يدي جليس"[1]

ليس الرفق في الأمور الكبيرة أو ذات الشأن أو قضايا الحياة فقط، بل يتخطاها إلى ما يسمى صغائر الأمور: النظرة، المصافحة، طريقة الجلوس، الإقبال بالوجه. وكلها ذات آثار عظيمة في النفس، فهي تملك القلوب، وتنبّه العقول، خاصة أن محمدًا لم يفرق في ذلك بين فقير أو غني، ذو الشأن أو بسيط الشأن، الرجل والمرأة، الصغير والكبير. لذا، امتلك حب القلوب من حوله.

ويتعزز الأمر بأمور أخرى: فعن أنس بن مالك – ﷺ –: ما رأيت رجلا قط التقم أذن النبي (ﷺ) فينحّي رأسه، وما رأيت رسول الله آخذًا بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده"[2].

مظاهر أخرى للأمور البسيطة: الاستماع لأي شخص فيما يسرّه في الأذن دون ملل، والميل مع أي فرد يأخذ بيده لأمر دون اعتراض.

تميزت مدرسة النبوة بالتربية العظيمة والتهذيب وهما جوهر خلق الرحمة البشرية في أعلى صورها، لأنها عند المصطفى (ﷺ) ليست صفة، ولا سلوكًا فحسب، بل غاية تربوية، وقد اعتمدت هذه المدرسة على طرق عديدة في تعميق الفضائل السامية وهي: النقاش الهادئ و الحوار الممتع، ضرب المثل من مواقف الحياة ومن الأمم السابقة، استعمال الوسائل البسيطة مثل أن يخط (ﷺ) على الرمال خطوطًا

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٦.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٦٧.

للتوضيح، الفعل التطبيقي، تحفيز التفكير العقلاني وإثارة الضمير الإنساني ومشاعره، والتدرج من الحسي إلى المجرد، ومن المعلوم إلى المجهول [١].

وختامًا لهذا المبحث: نشير إلى أن الدراسات النفسية عن الشخصية العربية إلى أن الإسلام مكون ثابت من مكونات شخصية العربي، ويشكّل الدين الإطار الشامل لحياة العربي منذ دخوله الإسلام. إن كل سلوك أو دافع حين يعالجه الإسلام، فإنه يمزج بين الدافع والدين، فيصوغ الدين مع السلوك في إطار من الصلة الدينية للإنسان. لم يتجاهل الإسلام الدوافع الفردية الذاتية، والمصالح الاجتماعية، وسعى إلى التقاء إيجابي بينهما، وقد هذّب سلوكيات المسلم الاجتماعية، معززًا دور التنظيم الاجتماعي في تحقيق مصالح الفرد الذاتية، وأبرز ما أشار إليه الإسلام في هذا الصدد: دور التراحم الفردي في تنمية الحس الاجتماعي، فالذي يرحم الآخرين، يرحم نفسه والأقربين إليه في النهاية، فكل فرد معرض يومًا ما إلى أزمة أو محنة أو احتياج، ومن ثم يأتي دور المجتمع إزاءه [٢].

وفي الفصل الثالث سيتعرض الباحث إلى مظاهر رحمة الرسول مع غير المسلمين وفي الحرب.

---

(١) انظر بشكل تفصيلي: خصائص مدرسة النبوة، د. كمال مُحَمَّد عيسى، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م، ص١٢١ – ١٢٦.

(٢) انظر: الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي، د. فؤاد حيدر، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٢٨١– ٢٨٣.

الفصل الثالث

مظاهر رحمة الرسول(ﷺ)
مع غير المسلمين وفي الحرب

المبحث الأول

مظاهر رحمة الرسول (ﷺ) مع غير المسلمين

لأن الرسول (ﷺ) هو رحمة للعالمين، فقد امتدت رحمته إلى جميع الخلق، من غير المسلمين، لتشمل أهل الكتاب والكفار والمشركين. وقد انطلقت الشريعة الاسلامية في تعاملها مع غير المسلمين من قاعدة ضمانة الحقوق والحريات لهؤلاء إذا كانوا منضوين تحت حكم دولة الإسلام وشريعته، مثلهم مثل الرعايا المسلمين، بلا تمييز بسبب العرق أو الدين أو الأصل، بنفس ما طرحته مفاهيم الدولة المعاصرة التي تتخذ من المواطنة ركنًا لها، فغير المسلمين لهم كامل الحقوق القانونية مثل المواطنين المسلمين، كما أن لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية، انطلاقًا من القاعدة القرآنية ﴿لا إكراه في الدين﴾، ويرتبط بذلك حرية الرأي والتعبير والمعتقد والعبادة، فلهم معابدهم ومنتدياتهم الخاصة، وهم مأمنون على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم ضمن المنظومة التشريعية الإسلامية[1] فمفهوم أهل الذمة قائم على أنهم في حماية المسلمين وفي ضميرهم، وقد شرع عقد الذمة ليكون وسيلة إلى إسلامهم، وتمكينهم من المقام في أمصار المسلمين، وفيه منفعة للمسلمين بالبيع والشراء[2].

---

(١) انظر: حقوق الإنسان في العالم المعاصر، د. سعاد الصباح، مرجع سابق، ص ٢٤ – ٢٧.

(٢) فقه السنة، ج٣، ص١٠. رأي صاحب البدائع.

فمن الراسخ في الإسلام أن كل فرد في النوع الإنساني له حق أن يحيا حياة إنسانية كريمة، في هذه الدنيا، وأن يعيش عيشة محترمة، آمنًا على نفسه وماله وعرضه في دائرة عمله وظروفه وبيئته ومجتمعه وعلى كل إنسان واجبات إنسانية تقابل ما له من حقوق قررتها شريعة الإسلام؛ تحقيقًا للتكامل الأخوي بين البشر[١]، هذا بجانب تعزيز مبدأ العدالة، الذي ينتظم سائر جوانب التشريع الإسلامي في العلاقات والمعاملات الإنسانية، سواء كانت بين المسلمين أو بين غيرهم من الملل والنحل[٢]، عملاً بقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾[٣] فالعدل في الآية القرآنية هو الحقيقة الأولى لخلافة الإنسان في الأرض، ولم يجعل الله تعالى الإنسان خليفة إلا ليحقق العدل في كل صوره بتنفيذ شرائع الله وتطبيق السنن الكونية وكشف حقائق الوجود [٤].

وهذا المبدأ شمل: الحياة الاقتصادية في المجتمع المسلم، فلا غش ولا احتكارات ولا استغلال للمسلمين ولا لغير المسلمين، فالعدالة المالية تشمل الجميع، وكذلك في الحياة الفكرية والثقافية، فكل جماعة أو طائفة دينية لها كامل الحقوق في نشر معتقدها، والتعبير عن أفكارها وفلسفاتها، أيضًا تنتظم العدالة في المجال السياسي، فالمجتمع المسلم لا يعرف التهميش للفئات السياسية ولا يميز الناس على أساس دينهم أو عرقهم أو وضعهم الاجتماعي[٥].

وقد أباح الإسلام التعايش الكامل مع أهل الكتاب من اليهود

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون، مرجع سابق، المجلد الأول، ص١٧٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٦٦.
(٣) سورة النحل، الآية (٩٠).
(٤) المرجع السابق، ص٢٩٠.
(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٩ – ٢٧٢.

والنصارى، ومن أبرز مظاهر التعايش، إباحة أطعمتهم، قال تعالى:﴿وطعام أهل الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم﴾[1] ولم يختلف السلف أن المراد بالطعام هو الذبائح. وقد أكل الرسول (ﷺ) من شاة قدمتها إليها يهودية[2].

والتعايش والتعامل جائزان مع المشرك، غير الكتابي، فيذكر أن الرسول استأجر دليلا يدله على طريق الهجرة وكان مشركًا فأمّنه ودفع إليه رحلته هو والصديق أبو أبكر ﷺ [3]، وقد استعان الرسول (صلى الله عليه وسلم) بيهود في بعض غزواته، واستعان بصفوان بن أمية، وسار على نفس الأمر عمر بن الخطاب ﷺ في حروب الشام، وقد اشترط الفقهاء أن يطمئن القائد أو ولي الأمر إلى حسن خلق الجندي المستعان به، وأن يكون محل ثقة[4].

وقد اعترف الإسلام بأهل الكتاب: نصارى ويهود، ولم يتعامل معهم بتجاهل، أو إنكار الوجود، أو الاستخفاف، وإن كان بعضهم يتعامل مع الإسلام بمنطق التجاهل والإنكار، ويعدون الإسلام ديانة مقتبسة من العهد القديم والعهد الجديد، بالرغم من أن الرسول مُحَمَّد كان أميًا. وقد أثبتت مخطوطات البحر الميت التي عثر عليها أحد رعاة البدو في فلسطين، في حفرة، واحتوت على وثائق غاية في الأهمية، أثبتت فيما أثبتت أن عيسى عليه السلام، كان رسولاً (بشرًا)، وذكرت أن رسولاً آخر سيأتي بعده، وقال عنه المسيح

---

(١) سورة المائدة، الآية (٥)

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، القسم الأول، ٢٤٥. وقد ذكر المؤلف: قال ابن حنبل سمعت أبا عبد قال: لا بأس بذبيحة أهل الكتاب إذا صلوا لله وسمّوا عليه، قال تعالى: { ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه }.

(٣) السابق، ص٢٧٥.

(٤) انظر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، د. عبد اللطيف عامر، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة – بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص٥٧– ٥٩.

أنه"سيشهد لي"، وجاء في إنجيل برنابا ما يؤيد هذه المخطوطات [1]. وقد رصد أحد المستشرقين وهو"درمنغم" علاقة النبي (ﷺ) مبكرة بالنصارى، فقد وجد عدد منهم في مكة، وكانوا مختلفي الأصول، وكانت لهم مقبرة في مكة، وبعض نصارى الحبشة جاؤوا إلى الرسول قبل الهجرة، لتحية النبي الجديد الذي أعرب عن عطفه على ديانة النصرانية، ودفع باطل المشركين بالحجج البالغة التي يقره عليها أهل الكتاب، وكان الرسول يثني على القسيسين والرهبان وقدّر فضائلهم[2].

ويرى المستشرق "وات" أن سبب التنازع الدائم بين الإسلام والمسيحية يعود إلى تصور النصارى في أوروبا أن المسلمين طردوا البيزنطيين وسيطروا على الأراضي المقدسة في فلسطين، واشتدت الدعاية ضد الرسول ولُقّب في أوروبا بأمير الظلمات، وحفلت النظرات الأوروبية إلى الرسول بكثير من الهجوم، واحتوت على قاموس ضخم من الانتقادات التي كانت أبعد ما تكون عن الواقع الصحيح، فالحقيقة أن محمدًا تحمّل الكثير من العذاب والحرمان في سبيل دعوته، وأنه نال احترام الكثير من الرجال شديدي الذكاء من بني قومه لصدقه وإخلاصه لدعوته[3]، لقد أوجد مُحَمَّد (ﷺ) قانونًا أخلاقيًا عامًا في بيئة بدوية

---

(١) راجع: دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط٣، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ص٢٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٧، ص٢٧٨. ولم تكن الجالية النصرانية ذات شأن في المدينة، مثل اليهود. ص٢٨٣.

(٣) انظر: مُحَمَّد في المدينة، منتوجومري وات، مرجع سابق، ص٤٩٤– ٤٩٦، يؤكد"وات"أنه من الخطأ الحكم على تصرفات مُحَمَّد من خلال قناعاتنا المعاصرة، ومن خلال الثقافة الأوروبية، ذلك لأنه كان يتصرف في ضوء ثقافة مجتمعه العربي، ووفقًا للوحي المنزل إليه من الله. ص ٤٩٧. وأرى: أن هذه نقطة مهمة، وهي عدم إغفال الشرط التاريخي وثقافة الإسلام والعرب عند الحكم على الرسول الأعظم، وهذه من أكبر سقطات المستشرقين الذين يرون الأمور وفقًا لنظرية المركزية الأوروبية التي تعد أوروبا مركزًا للعالم في العلن والثقافة والديانة.

كانت تفتقد مثل هذا القانون المتكامل من خلال شريعة الإسلام، وقد أقرّ الإسلام حماية القبائل المتحالفة مع المسلمين، وفقًا لما كان سائدًا وقتئذ من حماية القبائل لتحالفاتها وعهودها، ونستطيع أن نفهم من ذلك كيف أن محمدًا أجلى اليهود وحارب قريشًا بسبب نقض عهودهم مع القبائل المسلمة في المدينة وخارجها[1].

أما علاقة الرسول (ﷺ) باليهود، فقد كانت في أولها مسالمة، وعقد الرسول معهم معاهدة أمان، يتولى كل طرف حماية مصالح الطرف الآخر وعدم التعدي. لقد أمّل اليهود في مطلع العهد المدني أن رسول الله مجرد زعيم سياسي، سيسعى إلى كسب ودهم وبالتالي يمكن استمالته، على حساب العقيدة والشريعة الإسلامية، وسرعان ما ظهر لهم خطأ هذا الظن، فقد كانت العقيدة الإسلامية تخالف اليهودية، وانقلبوا عليه بعدما نزلت الآيات القرآنية تهاجم انحرافهم وفسادهم العقدي وتحريفهم في كتبهم، خاصة أن اليهود اعتبروا ديانتهم حكرًا عليهم فقط، وازدادوا انغلاقًا بفعل سوء أخلاقهم، وتعاملاتهم المالية السيئة، وبثهم الفتنة بين القبائل [2]. فهم شعب وديانة منغلقة، فوجئوا بالإسلام ذي الانفتاح العالي والعالمي التوجه، مع شخصية النبي (ﷺ) بكل ما فيها من تواضع وسعة أفق، وسمو خلقي، ومن هنا كانت المعارك بين الجانبين، وهي في جميعها كانت ردًا على ما بدأه اليهود من خيانة ونقض العهود.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٤٩٩، ٥٠٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٢٦ – ٣٢٩. وقد رد المؤلف تفصيليا على ما ادعاه المستشرق"إسرائيل ولفنسون"بشأن أن اليهود كانوا مخيرين بين: الدخول في الإسلام والاندماج في المجتمع المسلم، وبين الحرب والإفناء، وقد تمسكوا بعقيدتهم، ورحلوا عنالمدينة بسبب هذا الموقف، ونسى أو تناسى الأدلة التاريخية والأحداث التي أجمع عليها المؤرخون عن الأفعال الغادرة التي لقيها الرسول – شخصيًا – والمسلمون من اليهود، والتي استتبعت محاربتهم وإجلاءهم.

ليست المشكلة في المسلمين، وإنما المشكلة في اليهود الذين يرون أنفسهم فوق البشر، وأعطوا لأنفسهم الحق في استغلال الأميين (باقي الشعوب غير اليهودية) أموالهم باسم الربا، وأحلوا كل وسيلة مشروعة في سبيل ذلك، فهم يعدون أنفسهم أبناء الله وأحبّاءه. وقد كانت لهم أدوارًا مشبوهة على امتداد التاريخ الإسلامي في الدس والوقيعة بين المسلمين، ونشر الروايات الكاذبة في كتب المسلمين [1].

خلق الرسول (ﷺ) مع أهل الكتاب:

يبدو هذا الخلق واضحًا في أبسط مظاهر الحياة، وهو علاقة السلام والتحية، كان المنطلق التعايش المسالم معهم، وفي الحديث أن رسول الله (ﷺ) يقول:"إن الله جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانًا لأهل ذمتنا"[2]، فما ينبغي للمسلم أن يتكلم مع آخر إلا وأن يبدأه بإلقاء السلام عليه، وإن تحية أهل الإسلام هي:"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، وعند الوقوف عندها نجدها تشمل مبدأين حاكمين: الأول: السلام بكل ما تعنيه الكلمة من صفاء ونقاء ورغبة في الخير والمصالحة والمودة، والأهم أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى. والثاني:

الرحمة، وهي الشق الثاني من التحية التي هي شعار المسلم اليومي، وقد

---

(١) مكايد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني، دار القلم، بيروت – دمشق، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ص١٠، ١١.

(٢) ذكره ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق، ص٢٦٥٤، نشر موقع الوراق الإلكتروني. عن أبي أمامة: أنه كان يسلّم على كلّ من لقيه. قال: فما علمت أحداً يسبقه بالسّلام، إلاّ يهودياً مرّة اختبأ له خلف اسطوانة، فخرج، فسلّم عليه؛ فقال له أبو أمامة: ويحك يا يهوديّ، ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك رجلاً تكثر السّلام فعلمت أنه فضل، فأحببت أن آخذ به. فقال أبو أمامة: ويحك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إن الله جعل السّلام تحيّةً لأمّتنا وأماناً لأهل ذمّتنا".

جاءت مرتبطة بالله تعالى، الرحمن الرحيم. وكذلك فإن التحية تحمل الأمان لأهل الذمة، وهم غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، فهم في ذمة المسلمين وضميرهم، وسماعهم لتحية المسلمين اليومية، أمان لهم دائم ويومي. ومسامحتهم إذا خالفوا التحية، بلي الكلمات نطقًا فيتغير المعنى، فيظهر المسلم طيب السلوك، وحسن القول، مع تنبيه الذمي الذي يفعل ذلك أن مقصوده معلوم، ولكن السلوك غير مردود.

فعن عائشة – ﷺ – قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله (ﷺ)، فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: فَفَهمتُها، فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله (ﷺ): مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلتُ: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد قلت وعليكم"[1]. السام معناها: الموت والهلاك. وهكذا كان لؤم اليهود في القول والفعل، حتى في إلقاء السلام، ولكن الرسول أكبر من تلك الشراذم، فكان رفقه درسًا، الرد:"وعليكم"، يتضمن: رد هلاكهم عليهم، وأن المصطفى قد فهم المعنى ورد عليهم بالأفضل منهم، دون أن يغمط حق نفسه.

وفي رواية أخرى، عن عائشة – ﷺ – أن يهودًا أتوا النبي (ﷺ) فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحشاء. قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ماقلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ"[2].

---

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٥، ٩٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٩٦.

هذه الرواية تفصل الأمر أكثر، وتوضح الحكمة في رد النبي على اليهود التي تتجلى في ثلاثة أمور:

- رد التحية عليهم.
- الرد برفق دون عنف أو فحشاء.
- الدعاء عليهم، فالله سيستجيب للرسول ولن يستجيب – عز وجلّ – لهم.

إن الرفق مفتاح الخير، والرفق ليس كلمة فقط، بل تعبيرات الوجه، من انبساط وتبسط، وهي كفيلة بفتح الأقفال المغلقة في النفوس، فهي تعبر عن اللغة الإنسانية التي يتقاسمها جميع الناس، وأهل الديانات [1]، وهذا من شأنه أن يحبب اليهودي – الذي أراد التطاول – إلى رسول الله وإلى الإسلام.

وكان ديدن الرسول في حواره مع اليهود الحجة والإقناع، فقد جاءت طائفة من اليهود إلى رسول الله (ﷺ) فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زَنَيا، فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، ثم قرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم. فأمر بهما (بالرجل والمرأة الزانيين) رسول الله فرجما"[2]. إننا أمام حوار عقلاني بين الرسول وبين طائفة من اليهود، أرادوا من سؤالهم اختبار حكم الرسول في الزنا للمحصن، فحكم الرسول بالرجم، ولكنهم كانوا غير أمناء، ففضحهم عبد الله بن سلام، أحد

(١) انظر: قبسات من الرسول، مُحَمَّد قطب، دار الشروق ن ط٩، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص١١٤.
(٢) رواية الموطأ، الإمام مالك بن أنس، راجع: أحكام رسول الله ﷺ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن فرج القرطبي، نشر: دار كنوز للإعلام، القاهرة،١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٢٦.

أحبارهم السابقين ثم أسلم، وكان وسيطًا في النقاش الذي كان دائرًا بين اليهود والرسول في كثير من القضايا والأمور.

ولا يغرّنا أن اليهود يجادلون في الأمور الدينية حرصًا منهم على الدين، إنهم"يكوّنون البيئة التي تتوفر فيها سوءات التدين المصنوع، والاحتراف السمج بمبادئ السماء، وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك بالقشور والولع بالجدل، ومن وراء ذلك قلوب خربة، ونفوس معوجة...، وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام فإذ لم يرحبوا به فليكونوا أبطأ من الوثنيين في مخاصمته... لكن اليهود صمتوا أولاً صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود"[1].

وقد رُصِدت بعض الكتابات الفقهية الإسلامية التي تنظر إلى أهل الكتاب نظرة دونية، والتي يتكأ عليها العلمانيون الذين يستشهدون ضد الشريعة الإسلامية، ويدعّون أنها تعامل غير المسلمين من اليهود والنصارى معاملة دونية[2]، فإنما هي من كتابات المتأخرين من فقهاء المسلمين، الذين كتبوا مؤلفاتهم في ضوء أحداث عصرهم، حيث تعرض العالم الإسلامي آنذاك إلى هجمات صليبية شرسة، تحت لواء الصليب، ظلت زهاء قرنين، ووجدت من بعض النصارى في المجتمعات الإسلامية معينًا لهم، وكانت ردًا– أيضًا – على ما تعرض له المسلمون في الأندلس من تعذيب وحشي فيما يسمى بمحاكم التفتيش، وإجبار على المسيحية وهذا ما دفع الفقهاء إلى التحذير من خطر

---

(١) فقه السيرة، مُحَمَّد الغزالي، ص١٨٦.

(٢) انظر على سبيل المثال: هوامش على دفتر التنوير، د. جابر عصفور، دار سعاد الصباح للنشر (الكويت – القاهرة)، ١٩٩٣، حيث هاجم في بعض فصول الكتاب الشريعة الإسلامية منطلقًا من أنها خاضعة لتفسيرات العلماء وأهوائهم، وأن هناك ما يسمى بالإسلام السني والشيعي، والإسلام السعودي والأفغاني...، وتطرق إلى بعض الكتابات الفقهية التي تحط من شأن أهل الكتاب، وتعمل على تمييزهم في المجتمع المسلم، ويأخذها دليلا على أن النظام العلماني هو الأنسب للمجتمعات العربية والإسلامية.

هؤلاء، وأفتوا بإلزام أهل الكتاب بارتداء شارات بعينها، وعدم التشبه بأزياء المسلمين ولا ألوانهم، وإلزامهم بشد الزنابير حول خصورهم، ونقش أختامهم بالعربية، وجزّ نواصي شعورهم، وختم رقابهم بالرصاص وقد جاءت هذه الكتابات، فكأن هذه الآراء رد على ما عاصره فقهاء هذه المرحلة الزمنية، ولكن في النهاية تظل هذه الآراء نشازًا وغير معترف بها في دائرة الفقه والتشريع الإسلامي[1] والدليل على ذلك أن الأقليات غير المسلمة نعمت بالحرية والأمان العقدي في بلاد المسلمين لفترات طويلة، وحافظ المسلمون على وجودها، فلم يتعرضوا لإفناء أو مذابح مثل فعل الاحتلال الأوروبي في العصر الحديث مع المسلمين، والجزائر شاهدة حية على بشاعة الاحتلال الفرنسي، حيث قدّم الشعب الجزائري زهاء ثلاثة ملايين شهيد طيلة فترة احتلال فرنسا لها، والتي استمرت مئة وثلاثين سنة، منهم مليون ونصف شهيد في معارك الاستقلال أواخر الخمسينيات وأوائل ستينيات القرن العشرين، وقد كانت فرنسا تمارس احتلالا عسكريًا، وهيمنة ثقافية سعت إلى تذويب الهوية الإسلامية والعربية، وخابت مساعيهم، واسترد الجزائريون أرضهم ودينهم ولغتهم.

(١) راجع: العلاقات الاجتماعية بين الإسلام وغير المسلمين في الشريعة الإسلامية واليهودية والمسيحية والقانون، بدران أبو العينين بدران، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص٣٢٧، ٣٢٨. ومن هؤلاء الفقهاء ابن حجر (الشافعي)، وقد اقتصرت هذه الظاهرة في كتب القرن العاشر الهجري.

المبحث الثاني

مظاهر الرحمة بالبشر في الجهاد

قبل الحديث عن الجهاد، ينبغي التأكيد على أن الإسلام دين السلام، بل إن لفظتي السلام والإسلام تلتقيان في معان واحدة: الطمأنينة والأمن والسكينة[١]، ومن أسماء الله تعالى الحسنى"السلام"، فالإسلام يؤمّن الناس على حياتهم، وفيه من الشرائع ما يجعل المجتمعات الإسلامية تعيش في سلام وخير.

ولكن من سنن الله في الأرض وجود التنازع بين الجماعات البشرية من أجل الأرض أو المال أو العقيدة أو الهيمنة...، وكلها غايات دنيوية، ينتج عنها من المظالم والمفاسد ما لا يتصوره عقل، ولذا شرع الله الجهاد في فلسفته الكبرى.

الجهاد – لغويًا– يعني: المشقة وبذل الجهد [٢] ومفهوم الجهاد متجه إلى الدفاع عن المقدسات الإسلامية، ونشر الإسلام، وحماية الحرمات، ومواجهة الأعداء. كذلك يتعدى إلى: كل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر"فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه"وكما صرح به رسول الله ﷺ. والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة ﷺ:"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"يعنون جهاد النفس[٣].

---

(١) القاموس المحيط، مادة سلم، ص١٤٤٨.

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري. ص٦٩.

(٣) إحياء علوم الدين، ج١، ص ٥٨٥.

التباس مصطلح الجهاد في الفكر الغربي:

باتت كلمة الجهاد ذات مدلول ملتبس عند كثيرين في مختلف دول العالم، بسبب تصاعد الحملة المضادة للإسلام بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر العام ٢٠٠١م، حيث ربطوا هذا المصطلح بالهجوم من قبل بعض المسلمين الضالين على منشآت مدنية آمنة في الغرب، فاستغلتها الأقلام الخبيثة في تشويه الإسلام، وربما يعود هذا الاستغلال إلى الميراث السيئ الذي حملته أوروبا نحو الإسلام منذ حقبة الخلافة العثمانية التي كانت تهديدًا مستمرًا لأوروبا، فتحول الصراع السياسي والعسكري بين العثمانيين والدول الأوروبية إلى صراع ديني. وقد كانت أوروبا قديمًا وإلى ما قبل سقوط الخلافة العثمانية العام ١٩٢٤م، تخاف من إعلان الجهاد الديني من قبل الخلافة العثمانية، لأنه يعني تهييج الشعوب الإسلامية التي تحت المظلة العثمانية ضد أعداء الأمة.

وثيقة الرسول صلى الله عليه وسلم) في أحكام الحرب والجهاد:

فمن المفيد استعراض الوثيقة الأساسية التي أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم) قادته المجاهدين، وهي على وجازتها القولية تمثل الدستور الإسلامي في الحرب والجهاد، ضد غير المسلمين.

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال :

"كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال (ﷺ:"اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل

منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا[1].

يمثل هذا الحديث الطويل أحكام الجهاد لدى المسلمين، نظرًا لأنه يحتوي على المبادئ والقيم الآتية:

- وصية بتقوى الله للقائد" في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا"، وتقوى الله مفتاح كل خير، وقد جاءت الوصية موجهة إلى القائد الذي هو قدوة قبل أن يكون زعيمًا، وشددت على أن تكون تقوى الله مع الخاصة المقربة من القائد؛ فهم مستشاروه، وكاتمو أسراره، ثم مع المسلمين: الجنود والعامة منهم.

-الغزو لأرض العدو يكون في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، وتلك هي الغاية العليا للمسلمين من الجهاد، أي يكون القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ونشر دينه، فالإسلام خير للبشرية جمعاء، ولا ينبغي أن يترك الناس هائمين في الكفر

(١) صحيح مسلم، الحديث ٣٢٦١.

والفسوق، يعيشون حياة البهائم، كل على هواه، ووفقًا لمعتقدات منحرفة، وقيم فاسدة. هذه رسالة الإسلام مع البشرية جمعاء؛ وهي تمثل الرحمة العظمى بالبشر، فمن آمن بالإسلام دينًا فقد نال رحمة الله في الدنيا والآخرة، ومن آثر البقاء على معتقده، وعاش في ديار المسلمين فهو أيضًا في كنف الإسلام، وفي ذمة المسلمين، وله حقوق تقترب من حقوق أهل الإسلام أنفسهم، ويزاد عليها أنه من رعاياهم، وحمايته الشخصية وأمنه واجبة على المسلمين.

- "اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا"، هذه الكلمات احتوت مجموعة من النواهي التي تمثل قيم الجهاد في الإسلام، فهي قيم عظيمة، وليت البشرية تأخذ بعضها وتطبقه في عالمنا الذي يموج في الصراعات. وقبل أن نتطرق إلى مناقشة هذه النواهي النبوية، نشير إلى أنها موجهة إلى كل مسلم، ليس القائد فحسب، بل كل جندي مؤمن خرج مجاهدًا مع المسلمين، وبالتالي فهي مسؤولية فردية، على كل جندي، ومسؤولية جماعية تقع على قائد الجيش المعبر عن مجموع الجيش المسلم الفاتح المجاهد، وأمير المؤمنين (الحاكم) الذي يرعى هذا الجيش، فليس الأمر انتقائيًا أو موجهًا لفرد معين. وقد اشتملت الوصايا على عدم الغدر (الخيانة للعدو والمعاهدة)، وعدم التمثيل بجثث القتلى من الأعداء، فسقوطهم طبيعي في المعركة، ولكن التمزيق والتقطيع لأعضاء الجسد غيلة وتشفيًا منهي عنه شرعًا، ولا يجوز قتل الوليد أو الطفل، فهو غير محارب، ومثله المرأة والشيخ، إذا كانوا غير محاربين ولا حاملي سلاح، أو بعبارة أوجز: كل من سالم المسلمين في الحرب لا قتال معه، وكل من حاربهم أي حمل السلاح ضدهم فهم يحاربونه، وهذا متفق عليه في كافة الاتفاقات الدولية.

- ويجب على المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الإسلام قبل المناوشة والقتال إن لم تبلغهم الدعوة، هذا إذا كان المسلمون هم القاصدون إلى الكفار، فأما إذا كان

قصدهم الكفار في ديارهم فلهم أن يقاتلهم من غير دعوة لأنهم يدفعونه عن أنفسهم وحريمهم [1].

في الحكم السابق موقفان: لا هجوم على العدو في بلاده قبل تعريفه برسالة الإسلام العظيمة، وإذا تعرض المسلمون للغزو من العدو في بلادهم فلا مجال لعرض السلام، بل الدفاع واجب فورًا عن ديار الإسلام، وهذا ما نصت عليه جميع الاتفاقات الدولية وهو ما يسمى بحق الدفاع عن النفس وحق تقرير المصير للشعوب والدول.

- إن الأعراب ليس لهم شيء في الفيء ولا في الغنائم ما لم يقاتلوا، فإذا قاتلوا استحقوا من الغنيمة ما يستحقه من شهد الوقيعة [2]. فهذا أمر خاص بالمقاتلين من المسلمين، فإن الغنائم توزع حسب المشاركة في الجهاد، والفيء أو الغنيمة لا تعبر بأي حال عن حجم التضحية المقدمة التي هي بذل الروح والدم؛ إرضاءً لله تعالى.
- إن الجزية تضرب على غير المسلم (الكافر والكتابي)، وهو لم يؤمن بالإسلام، ولكنه رضي بحكم المسلمين، وهذا يعني دخول غير المسلمين في حمى الإسلام، والجزية تؤخذ فقط من القادر على القتال من غير المسلمين، وبعبارة أوضح: فإن الجزية التي يدفعها غير المسلم تكون مقابلًا لعدم انضمامه للجيش المسلم، وعدم انخراطه في القتال، فهو يدفع مقابلا ماديًا وينأى بنفسه عن دفع ضريبة الدم.
- إن الجزية ليست أجرة، ولو كانت لوجبت على النساء والصبيان والزمنى

(١) أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، القسم الأول، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦.

(المرضى ذوي الأمراض المزمنة) والعميان، كما أنها لاتقدر ماديًا بحسب المنفعة، فإن من يسكن دارًا يؤدي الأجرة حسب موقع ومساحة هذه الدار، وتزيد أجرة الدار سنة بعد أخرى، وهذا ليس في الجزية، فإنما هي تؤخذ مرة في السنة ولا يتم اتفاق بين المؤجر والمستأجر، وإنما هي مقدار مادي محدد [1]. وقد أجاز الفقهاء أن الجزية تسقط عن الذمي إذا انضم للجيش المسلم.

- ارتباطًا بالنقطة السابقة، هناك قضية تثار: هل الجزية وضعت عاصمة للدم أو مظهرًا لصغار الكفر وإذلال أهله؛ فهي عقوبة؟ مصداقًا للآية الكريمة ﴿ قاتلوا الذين كفروا من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وفسر البعض الصغار أنه الإذلال لأهل الكتاب، وبعض الفقهاء أوجبوا أن يؤدي أهل الكتاب الجزية وهم في حالة ذلة أمام المسلم، فيأتي ماشيًا لا راكبًا ويطول وقوفه عند إتيانه...، وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – أن كل هذه الأقاويل لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن رسول الله (ﷺ) ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام أهل الملة عليهم وإعطاء الجزية [2].

-"إنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله"هذه المقولة النبوية تضع قاعدة غاية في الرقي الحضاري في الحرب وفي السلم، فمناسبة المقولة أنه إذا طلب أهل حصن ما أن يصالحوا القائد المسلم الفاتح وجنوده على"ذمة الله وذمة رسول الله"فعلى

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٢٥، ٢٦.

(٢) أحكام أهل الذمة، ص٢٤. يقول المحقق الدكتور صبحي الصالح معلقًا على هذا الرأي: رحم الله ابن القيم فقد أدرك بثاقب بصره وفهمه الصحيح للإسلام أن امتهان الذمي ينافي سماحة هذا الدين.

القائد ألا يعطي كلامًا بهذا الاصطلاح، فإنه سيكون ممثلاً لذمة الله تعالى وذمة رسوله أمام أهل الحصن، فكأنهم معبرون عن الإسلام كله من خلال ممارساتهم الشخصية والجماعية، أي أنهم سيضعون أنفسهم موضعًا ليس لهم، موضع السمو الإلهي والسنة النبوية الشريفة وهم بشر يعتريهم النقص والكسل والتقصير، مهما تحلوا بأخلاق الإسلام، فهم لن يكونوا على قلب رجل واحد في سلوكهم، ولا على مستوى واحد طيلة ممارساتهم، فالأفضل الاعتراف بالبشرية المسلمة التي تعني نقصًا وقصورًا. وهذا ما أكده رسوله (ﷺ) بعدئذ:"فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا"، فلو أن بعض القادة أو الجنود الفاتحين مارسوا أعمالاً من ظلم أو استئثار أو مصادرة ممتلكات خاصة، وهي ممارسات فردية الطابع، فإن أهل البلد سيحمّلون دين الإسلام هذه المخالفات، فيتشوه الدين بسبب هذه الممارسات. أما لو أعطى القائد العهد باسمه هو واسم جنوده، فسيكون الطابع البشري المستقى من الإسلام هو السائد، فإذا كان هناك خير فهو مما تعلمه المسلمون من دينهم وإن كان هناك شر، فهذا محمل على بشرية المسلمين، وتظل الشريعة في منأى عن أخطاء البشر. وهذا أمر ينبغي أن يكون في السلم أيضًا، فإن بعض العلمانيين يقيسون الشريعة الإسلامية ويحكمون عليها من خلال ممارسات بعض المسلمين، خاصة المتدينين، فيظنون أن الأخطاء الفردية أو الناتجة عن سوء فهم بعض النصوص إنما هي الشريعة نفسها، وهذا خطأ كبير في الحكم، فشتان ما بين التنظير والتطبيق، فالتطبيق خاضع للفهم والممارسة البشريتين، أما التنظير فهو أحكام الشريعة المستقاة من القرآن والسنة.

ويجدر بالذكر أن القتال في الإسلام تدرّجَ، فبدأ بإباحة الدفاع عن النفس، وهي مرحلة اختيارية لا إلزام فيها، وجعل الله تعالى العفو والصفح أولى، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنه لا يحب الظالمين﴾ [١]، ويكون الرد بمثله، قال تعالى ﴿ ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [٢]، ثم جاءت المرتبة الثانية بالأمر بالقتال دفاعًا عن النفس، وردًا للاعتداء، ومقاومة الظلم، وانتصافًا للحق، مصداقًا للآية الكريمة:﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل﴾ [٣]، وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: أن هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله (ﷺ) يقاتل من قاتله، ويكفّ عمن كف عنه، ولتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصًا، ومعنى قوله تعالى ﴿ولا تعتدوا﴾ أي عدم ارتكاب المناهي، من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة[٤]. وقد قال رسول الله:"اغزوا في سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع"[٥]. وجاءت المرتبة الثالثة متمثلة في الأمر بالقتال لتكون كلمة الله هي العليا، والثابت في

---

(١) سورة الشورى، الآيتان(٣٩، ٤٠).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٤)

(٣) سورة البقرة، الآية (١٩٠، ١٩١)

(٤) تفسير ابن كثير، ج١، ص٢٦٥.

(٥) صحيح مسلم.

هذه المرحلة أن"المسلمين لا يقاتلون في حق دينهم إلا عدوًا تعالمت لهم عداوته، وقالتهم وشمّر لقتالهم، واستعد لحربهم، فهم مضطرون إلا أن يقاتلوا"[١]، وقد عزز الإسلام ما يسمى بـ"السلام المسلح"،"الذي يستطيع أن يفرض نفسه على الأمم المغرورة بقوتها الباطشة وهو الذي يستطيع أن يقف في وجه الدول المسعورة لسفك الدماء"[٢]. وخلاصة القول في نظرية الجهاد في الإسلام: إن الحرب الإسلامية ليست مبادأة بالقهر والتسلط، وإنما هي ضرورة لتأمين سبيل الدعوة والدفاع عن حرية العقيدة، وليس الإسلام هو المانع وحده من القتل كما أنه ليس الكفر وحده هو الموجب له [٣]. وقد حسم القرآن الكريم هذه المسألة بقوله تعالى:﴿ ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعًا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [٤]

أحكام الأسرى في الإسلام، وبعض مواقف الرسول معهم:

أما الأسير لغة فهو كل محبوس في قد أو سجن أسير[٥]: ليس من يسقط في الحروب فقط، بل الأشخاص الذين التقى بهم فريق من المسلمين في ظروف خاصة ودون أن تكون هناك حرب معلنة بين الفريقين بمدلول الحرب. فهم: أهل الحرب وإن لم يوجدوا في ميدان القتال، وإن أخذوا وهم مغيرون وليسوا على

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام، المجلد الثاني، ص١٠٢٠.

(٢) السابق، ص١٠٢٤.

(٣) أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، د. عبد اللطيف عامر، مرجع سابق، ص٦٢. وهذا ما سار عليه الخلفاء المسلمون، فالهدف نشر الإسلام، وقد وبّخ الخليفة عمر بن عبد العزيز والي مصر، عندما شكى الأخير له من أن المصريين يدخلون الإسلام، وهذا يؤثر على إيرادات الجزية، فرد عليه الخليفة عمر: قبّح الله رأيك ما بعث الله محمدًا جابيًا ولكن بعثه هاديًا.

(٤) سورة يونس، الآية (٩٩).

(٥) لسان العرب، ج٤، ص١٧.

أهبة القتال، وأيضًا: اللاجئ من أهل الحرب إلى أحد المسلمين أثناء القتال أو بعد انتهائه، أما من شارك في القتال مع العدو ضد المسلمين، فتجري عليه أحكام قطاع الطرق [١].

وقد جرت عادة الدول في الحروب القديمة على قتل جميع الأسرى أو تشويههم، بقطع أطرافهم وسمل أعينهم. ليس هذا فقط، بل وفي التلمود ما هو أشد: اليهودي يقتل جميع الأسرى بمن فيهم النساء والأطفال ونصه"لا يقف إنسان في وجهك حتى تفنيهم تدريجيًا لئلا تكثر عليك وحوش البرية"[٢]

وقد كانت القاعدة السابقة في الحروب قبل الإسلام، في التعامل مع الأسرى هي: إطلاق يد الآسر في أسراه (قائد المعركة وضباطه وجنوده)، أما في الإسلام فنصت على أن رئيس الدولة هو صاحب الحق الوحيد في تقرير مصير الأسرى، ولا يجوز للآسر قتل أسيره [٣].

للأسير شروط هي: أن يكون متأهلاً للقتال، عاقلاً، مواليًا لأعداء المسلمين، وتتحقق المصلحة في أسره، وأن لا يكون ممن يدخل دار الإسلام بأمان أو بقصد التفاوض [٤].

---

(١) انظر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص٨٠، ٨٤. وأيضًا: التجار والحربي إذا دخل دار الإسلام بغير أمان.

(٢) أسرى الحرب في القانون الدولي العام والشريعة الإسلامية، عبد الواحد محمد الفار، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٦

(٣) نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام، ضو مفتاح غمق، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، بنغازي، ليبيا، ط١، د ت، ص٤١٠.

(٤) راجع بشكل تفصيلي: أحكام الأسري في الفقه الإسلامي، د. محمد عثمان شبير، بحث منشورة بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٥٦، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٣٤– ٢٣٩.

أما السبي فهو: ناتج عن وجود النساء والصبيان في ميدان القتال ووقوع الأسر على الجميع ومن هنا أيضًا تساق النساء أسيرات إلى جنود المسلمين، وبعضهن يفقدن أزواجهن في المعارك، فيكون من الأكرم لهن أن يجدن من الجنود المسلمين من يكفلهن، ويحميهن من الانحراف والتسول، ومن هنا أبيح التسري بهؤلاء النساء، فهن بشر لهن شهوة، والتسري بهن لا عيب فيه، بل إشباع لرغباتهن الحسية. وفي ضوء ذلك، نستطيع أن نعي تسري الرسول (ﷺ) ببعض الجواري، فهذا أمر كان شائعًا في معارك هذا الوقت ليس في بلاد العرب فقط، بل لدى جميع الشعوب [١]، وقد أفتى الفقهاء بجواز إعادة الأسيرات إلى قومهن إذا رأى ولي الأمر ذلك، ورغبن هن في ذلك، انطلاقًا من قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح [٢].

وقد كان للرسول (ﷺ) كانت له أربع سراري فقط، رغم كثرة حروبه وغزواته، وأكثرهن أهدي إليه دون حرب، وهن:"مارية"القبطية وكانت إهداء من المقوقس عظيم القبط في مصر، وأسلمت وأنجب منها الرسول ابنه إبراهيم الذي مات صغيرًا، وكانت لديه جارية أخرى اسمها"ريحانة"وقد عرض عليها الإسلام، ففضلت أن تكون في ملكه ولم تسلم. وجارية أخرى أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زوجته"زينب بنت جحش"رضي الله عنها [٣]. وموجز القول في طريقة الرسول في التعامل مع الأسرى أنه كان"يمن على بعضهم (بإطلاق سراحهم)، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين"[٤].

---

(١) راجع: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) نفسه، ص٢١٩.

(٣) زاد المعاد، للإمام ابن القيم رحمه الله، دار الريان للتراث، القاهرة، ج١، ص٤١

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٩٦.

ولنتناول موقفًا مع الأسرى للرسول ﷺ)، وهو موقفه من أسرى قبيلة طيء ومع زعيمها عدي وأخته سفانة:

فقد كانت هناك مواقف عدائية من عدي بن حاتم، زعيم قبيلة طيء، فقد تواطؤ مرات ضد جيوش المسلمين، وضد القبائل المسلمة والمتحالفة مع الرسول ﷺ)، التي تقطن شمال الحجاز، فكلّف علي بن أبي طالب على رأس جيش بالهجوم على القبيلة، فهجم عليهم"علي"في الصباح الباكر، وكانوا لا يزالون يغطون في نومهم، فانتصر على القبيلة، فيما استطاع زعيم القبيلة الفرار إلى دومة الجندل في بلاد الشام. وهذا ما يرويه عدي بنفسه إذ يقول:

"فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطيء هذه البلاد فآذني؛ ففعل؛ ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل مُحَمَّد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش مُحَمَّد، قال: فقلت : فقرب إلي أجمالي، فقربها فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية، ويقال: الحوشية .قال ابن هشام :وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقامت بها ".

فجمع علي أموال وأغنام وأسرى القبيلة معًا، إلى المدينة المنورة، وكان من ضمن السبايا سفانة بنت حاتم الطائي، فجعلوا بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يحبسن فيها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة أي مفوهة اللسان، فقالت:" يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك . قال : من وافدكِ ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : الفار من الله ورسوله ؟!

ثم مضى رسول الله ﷺ وتركها، حتى إذا كان من الغد مر بها، فقالت له

مثل ذلك وذكر لها مثل ما قال بالأمس . قالت سفانة:" حتى إذا كان بعد الغد مر بي، وقد يئست منه، فأشار إلي رجلٌ من خلفه أن قومي فكلميه، قالت : فقمت إليه، فقلت : يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك. فقال ﷺ : قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني . فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه، فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة، قالت : وإنما أريد أن آتي أخي بالشام . فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ . قالت: فكساني رسول الله ﷺ، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام، فنصحت أخاها بالإسلام قال عدي : فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلي تَؤُمُّنا، قال : فقلت ابنة حاتم . قال: فإذا هي هي، فلما وقفت علي انسحلت تقول : القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك ! قال : قلت : أي أخيه لا تقولي إلا خيرا، فوالله ما لي من عذر لقد صنعت ما ذكرت . قال: ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها : وكانت امرأة حازمة، ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا الرأي .

قال فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها قال: قلت في نفسي : والله ما هذا بملك! قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل في

بيته، تناول وسادة في أدم محشوة ليفا، فقذفها إلي، فقال : اجلس على هذه، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك[1].

في القصة السابقة التي ذكرت بشكل مفصل على لساني سفانة وعدي ابني حاتم الطائي، الكثير من الدروس والعبر، نجملها في النقاط الآتية:

- أسر الرسول قبيلة طيء ومعها ابنة شيخ القبيلة"سفانة"، حيث كانت في حظيرة بجوار المسجد للسبايا، وهناك كررت القول ثلاث مرات للرسول أن يفرج عنها، ولكنه كان يذكرها بأخيها الذي فرّ وكان على عداء بالرسول (ﷺ)، واستجاب لها في المرة الثالثة، فأطلق سراحها، وطلب منها ألا ترحل إلا مع رفقة طيبة من رفاق الطريق، فأقامت حتى جاءت رفقة، اصطحبوها إلى بلاد الشام، لأخيها عدي، وقبل ذلك زوّدها بالنفقة والكسوة والطعام. لم يذل المصطفى هذه المرأة، وهذا مألوف عادته، ولم يتشفَ فيها وهي ابنة حاتم الطائي أكرم الكرماء. فكان كرمه (ﷺ) أعلى من أبيها، أطلقها، وكساها وأطعمها ورافقت من يوصلها لأخيها في الشام، كما امتن عليها بقومها وأطلق سراحهم أيضًا.
- في الموقف التالي: نرى تصرف عدي بن حاتم مع سفانة، فقد كان حكيمًا في الحكم، إذ سألها عن رأيها في الرجل، فقالت كلمة جمعت حكمة الدنيا والآخرة، قالت:"أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت". فإذا آمن عدي، ووافق محمدًا ﷺ)، وانضم إليه، فهو فائز

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ج٢، ص٥٧٨ – ٥٨٠.

بميزتين: فإذا كان مُحَمَّد رسولاً، فمن آمن به فهو سابق في الإيمان والفضل والمثوبة، وإذا كان ملكًا، فهو خير وأكرم من يناصر حلفاءه، وفي نفس الوقت، سيبقى عدي زعيمًا لقبيلته كما كان. وهكذا كانت المرأة وأخوها حكيمين حازمين.

- المشهد الثالث: عدي مع الرسول في المدينة؛ حيث تعامل معه الرسول ﷺ) بكل كرم وأريحية، فقد اصطحبه إلى بيته الخاص، وفي الطريق تستوقف الرسول امرأة كبيرة، فلا يزال الرسول يحادثها، حتى فرغت هي وانطلقت. إنه موقف تربوي لزعيم قبيلة، فر بأولاده وأهله تاركًا إخوته وقبيلته، بينما الرسول الزعيم والحاكم، يرعى أهل المدينة، الصغير والكبير، القريب والبعيد.

- المشهد الرابع في بيت النبي (ﷺ)؛ يعطي حشوة للضيف، ويلح عليه أن يجلس، ومن ثم يرغب أن يسمع من حاتم، فيحادثه حاتم بما في نفسه، وحاتم يقول: والله ما هذا بملك.

نعم ليس الرسول ملكًا وفقًا للمتعارف عليه من أنفة وتعالي الملوك، وإنما هو شخص مختلف، عينه على القلوب والعقول، يمتلكها بحسن خلقه، لم ينتقم من عدي الفار، بل يكرمه، ويفوق في إكرامه أباه حاتم الطائي، لماذا؟ لأنه يعلم عظم شأن الرجل"حاتم"، وأثر قبيلته وعراقتها بين قبائل عرب الحجاز، وأن وراء إكرام زعيم القبيلة، إدخال قلوب آلاف مؤلفة من أبناء القبيلة في الإسلام. وقد أكرم القبيلة كلها من قبل، فأطلقها مع أموالها وأغنامها لتقفل راجعة، ولو شاء لاحتجزها: مالاً وأنعامًا وسبيًا.

- أضف إلى ذلك أن الوفد الذي جاء إلى الرسول من طيء كان فيهم رجل اسمه زيد الخيل، وكان على رجاحة عقل كبيرة، وصاحب حكمة،

وقد تحادث مع الرسول، فأسماه الرسول زيد الخير. وقد قال عنه المصطفى (ﷺ):"ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه"إنها شهادة عظيمة من المصطفى، اعترف بحكمة الرجال وذكائهم، وبالفعل فإن الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام لو فقهوا. وهذا ما حدث مع زيد الخير، ويذكر أنه حسن إسلامه، وشارك ابناه في حروب الردة مع خالد بن الوليد [1].

ثانيًا: أحكام الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحرب:

لقد نهى الرسول (ﷺ) عن المثلة، ويقصد بها: التمثيل بجثث القتلى، بتمزيقها وتقطيعها، تشفيًا وغلاً. وقيل هو أن"يعذب أحد بعذاب الله تعالى"[2]. وقد رأينا في غزوة"أحد"، كيف فعل المشركون بعمه"حمزة بن عبد المطلب"وكان عظيم الشأن في الجاهلية، وأعز الله به الإسلام، فكان حصنًا وسدًا ضد الكفار، وله الكثير من المواقف المشهودة في الشجاعة والبأس، وقد ترصد له عبد يدعى"وحشي"في الغزوة، ثم رماه بحربة، فأرداه شهيدًا. ثم"خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بُقر بطنه عن كبده، ومُثّل به، فجُدِع (قطع) أنفه وأذناه. (وقد) قال رسول الله (ﷺ) حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن صفية (يقصد عمته شقيقة حمزة)، ويكون سُنّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير. ولئن أظهرني (نصرني) الله على قريش في موطن من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلا منهم. فلما رأى المسلمون حزن رسول الله (ﷺ) وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا:

---

(١) زاد المعاد، ابن قيم الجوزيه، ج٣، ص٥٠، ٥١.

(٢) تفسير القرطبي، ص١١٥.

والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثّلن بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب. قال ابن هشام: ولما وقف رسول الله (ﷺ) على حمزة قال: لن أُصاب بمثلك أبدًا! ما وقفت موقفًا أغيظ إليّ من هذا! ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله [1].

وقد أنزل الله عز وجل في ذلك من قول رسول الله (ﷺ) وقول أصحابه:﴿وإن عوقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم، لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تكُ في ضيق مما يمكرون﴾[2] فعفا رسول الله (ﷺ) وصبر ونهى عن المثلة[3].

وقد جاء في تفسير القرطبي للآية الكريمة:

"لا خلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل في المماثلة في القصاص؛ فمن قتل بشيء قتل بمثل ما قتل به؛ وهو قول الجمهور، ما لم يقتله بفسق كاللوطية وإسقاء الخمر فيقتل بالسيف. وللشافعية قول: إنه يقتل بذلك؛ فيتخذ عود على تلك الصفة ويطعن به في دبره حتى يموت، ويسقى عن الخمر ماء حتى يموت. وقال ابن الماجشون: إن من قتل بالنار أو بالسم لا يقتل به؛ لقول النبي ﷺ: (لا يعذب بالنار؛ إلا الله). والسم نار باطنة. وذهب الجمهور إلى أنه يقتل

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي. سلسلة تراث الإسلام، مؤسسة علوم القرآن (دمشق – بيروت)، دار القبلة للثقافة الإسلامية (جدة) القسم الثاني: الجزآن الثالث والرابع، ص٩٥، ٩٦.

(٢) سورة النحل، الآيات (١٢٦ – ١٢٨)

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، القسم الثاني، ص ٩٦.

بذلك؛ لعموم الآية"[1]

لقد كان الرسول (ﷺ) في أشد حالات الحزن والغيظ لاستشهاد حمزة والتمثيل به، وقد جاء أمر الله تعالى ألا ينساق الرسول وصحبه وراء الغضب، وإنما العقاب من جنس العمل، والعفو والصبر أفضل.

وعن سمرة بن جندب قال: ما قام رسول الله (ﷺ) في مقام قط ففارقه حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة وهذا حديث صحيح [2].

فقد سمع وأطاع المصطفى لأمر الله تعالى، وقد وضع الأمر بالصدقة في موازاة النهي عن المثلة، لأن هذا ليس من شأن المسلم، فالمسلم يقدم الأفضل للناس جميعًا، يتصدق ويحسن إلى الناس، ويمتنع عن التشفي بالتمثيل بالقتلى.

ويثير البعض شبهات بأن الرسول (ﷺ) قام بالمثلة مع العرنيين الذي غدروا بالمسلمين فقتلوا وسرقوا ونهبوا، فقطّع ﷺ) أطرافهم وأماتهم عطشًا، فإن هذا مردود عليه، بقول عالم عظيم:

"فإن قيل: فقد مثّل رسول الله (ﷺ) بالعرنيين، فقطّع أيديهم وأرجلهم، وسمّل أعينهم وتركهم في الحرة؟ قلنا: في ذلك جوابان: أحدهما أنه فعل ذلك قصاصًا لأنهم قطعوا أيدي الرعاء، وأرجلهم وسملوا أعينهم؛ وقيل إن ذلك قبل تحريم المثلة؛ فإن قيل: فقد تركهم يستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا عطاشًا. قلنا: عطشهم لأنهم عطّشوا أهل بيت النبي (ﷺ) تلك الليلة [3].

---

(١) تفسير القرطبي، ج٣، ص ٣٩٩.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، القسم الثاني، ص٩٦.

(٣) السيرة النبوية، هامش المحققين، القسم الثاني، ص٩٦، من رد السهيلي على الطاعنين.

من مواقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود:

وهي من أبرز مطاعن مفكري الغرب ضد الرسول، وقد تشككوا في أسباب محاربة الرسول لليهود ومن ثم إجلائهم عن المدينة، ولكن الوقائع تثبت من الوجهة العقلية والشرعية كيف كان المصطفى (ﷺ) عادلاً في حكمه وتصرفه، إزاء ما فعلوا وغدروا بالمسلمين. كثير من كتابات المستشرقين ومطاعنهم كانت موجهة نحو ما فعله الرسول مع اليهود من: محاصرة، وطرد، ونفي، وأسر، وسبي، وقتل. وأبرز هؤلاء المستشرقين كان متاثرًا بما بثه اليهود من دعاية مضادة ضد الإسلام؛ فيكون من المفيد التعرض بشكل تفصيلي بعض الشيء لغزوات الرسول ﷺ) ضد اليهود، وما حدث فيها. وهذا يكون وشيج الصلة بالمبحث السابق عن التعامل مع غير المسلمين، فهو يوضح بجلاء نماذج تفصيلية لتعامل الرسول مع غير المسلمين بشكل عام، واليهود بشكل خاص في الحرب، فلم يكن الأمر شهوة للقتل والانتقام، وطمعًا بما في أيدي اليهود من مال وأرض وسلاح، بقدر ما كان إحقاقًا للعدل، فلا يشترط أن تكون الرحمة مقتصرة فقط على العطف والشفقة، وإنما الرحمة مرتبطة في الأساس بالعدالة، ومن العدالة معاقبة الغادر والظالم وناقض العهود. وهذا ما سنستعرضه من خلال عرض أحداث الغزوة من واقع كتب السيرة الموثقة، ومن ثم مناقشة ما حدث على مستوى: الأسباب، والنتائج، والدلالات.

محاربة بني قينقاع وإجلاؤهم:

وقد كانوا أشجع اليهود، ولديهم حي خاص منهم في داخل المدينة، وكانوا يعملون صاغة وحرفيين، ويملكون آلات الحرب، وقد قاموا باستفزازات كثيرة ضد المسلمين، منها السخرية من المسلمين إذا دخلوا سوقهم، والتعرض للنساء المسلمين، وقد صبر الرسول والمسلمون على أذاهم، بل وتمادوا بأن تحدوا

الرسول، وقد نصحهم الرسول بعد غزوة بدر بقوله: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا. فقالوا له: يا مُحَمَّد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا. وقد صبر عليهم الرسول في ذلك [1].

وكانت المواجهة، بأن ذهبت امرأة من المسلمين إلى سوقهم لبيع شيء لديها، فرادوها على كشف وجهها، فأبت، فربط أحدهم طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما وقفت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فأسرع رجل من المسلمين لنصرتها فقتل اليهودي، فاجتمع عليه اليهود فقتلوه. ثم وصل الخبر إلى الرسول في المدينة المنورة، فحاصرهم الرسول خمسة عشر يومًا، ثم أجلاهم إلى الشام، وقد قبل وساطة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فيهم، وكان قد أسلم قبل نحو الشهر، فعامله بالمراعاة، ووهبهم له، وقبض منهم الرسول أموالهم[2].

إن الموقف يدل على خسة أخلاقية عظيمة من اليهود تتمثل في: تحديهم للرسول علانية بالقتال، وسخريتهم من قدرات المسلمين القتالية رغم انتصار المسلمين في بدر، ثم تعمدهم الاستهزاء بالمسلمين نساء ورجالا، وأخيرًا ما فعلوه مع المسلمة؛ إن جريمة هتك العرض أشد من القتل، فاستحقوا ما لقوا.

محاربة"بني النضير"وإجلاؤهم:

لقد أجلى الرسول (ﷺ) بني النضير لأنهم غدروا به، وما حدث أنه (ﷺ)

---

(١) الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص٢١٦. واللفظ من رواية سنن أبي داوود. وانظر أيضًا: السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٥٥٢.

(٢) زاد المعاد، ج٢، ص ١١٤– ١١٦.

خرج إلى بني النضير في دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله (ﷺ) عقد لهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله، خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعين بهم في دية هذين القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف، فلما أتاهم ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله ﷺ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم قاعد – فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم: أبو بكر، وعمر، وعلي.

فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث (بقي) النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به. فبعث رسول الله ﷺ مُحَمَّد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حيي بن أخطب وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

فحاصروهم خمس عشرة ليلة، وأمر النبي ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول[1].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م، ص١٩٢٠. وكذلك السيرة النبوية لابن هشام، القسم الثاني، ص١٩٠ – ١٩١.

من خلال أحداث هذه القصة نلاحظ عدة أمور:

- إن اليهود نقض العهد مرتين: الأولى: عندما قتلوا رجلين من بني عامر وبينهم وبين بني عامر حلف واتفاق. والثانية: عندما تآمروا لقتل الرسول بأن يرتقي أحدهم جدارًا فوقه، ويرميه بحجر.
- تدخّل أهل النفاق وهم المسلمون الذين أظهروا الإسلام وبطنوا الكفر والتآمر ضد الرسول وصحبه، فاستمع اليهود لهم، وحمي زعيمهم حيي بن أخطب، وقرروا مواجهة المسلمين وقتالهم. وهذا الخطأ الثاني، فقد كانت الفرصة معهم لتداوي المسألة، ولكنهم – لخستهم ونذالتهم – ظلوا يتآمرون، ويريدون إيذاء المسلمين.
- حاصرهم المسلمون، وأجلوهم، فخرجوا وهم يخربون بيوتهم، حاملين ما خف حمله وغلا ثمنه.
- لو شاء النبي ﷺ) والمؤمنون، لانتقموا منهم، ولكنهم سمحوا لهم بالخروج، بالرغم من أن الخائن عقابه القتل والخزي.

محاربة بني قريظة وخيبر وإجلاؤهم:

قَدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار على بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال : يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث؛ قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله؛ قال : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا . فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم . قال : يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل

بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا [1]. وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب. وقد كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه[2].

والسبب في هذه الغزوة: غدر يهود بني قريظة بالمسلمين أثناء حصار الكفار للمدينة المنورة، وقد سعوا إلى التعاون مع الكفار من أجل الهجوم المزدوج على الرسول والمسلمين، بل السعي إلى أخذ النساء والذراري من حصن حسان بن ثابت – ﷺ – رهينة لإذلال المسلمين بعد ذلك. وقد كان عقاب هؤلاء بعد حصارهم أن يحكم فيهم زعيم الخزرج سعد بن معاذ، وقد ظنوا أنه حليف سابق لهم، ولكن سعد – ﷺ – حكم فيهم أن: يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال. فقال الرسول (ﷺ): لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات.

ونفس الأمر ينطبق على يهود خيبر، فقد كانت وكر الدس والتآمر، فأهلها حزبوا الأحزاب، وحرضوا – سابقًا – بني قريظة على الغدر والخيانة، واتصلوا بالمنافقين وبغطفان وأعراب البادية ضد المسلمين، ووضعوا خطة لاغتيال الرسول (ﷺ) وإزاء ذلك حاصرهم الرسول، فسقطوا مهزومين، ما بين قتلى وأسرى [3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، القسم الثاني، ص ٢٣٣ – ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٣) انظر تفصيلاً: الرحيق المختوم، ص٣٣٤– ٣٤٤. والسيرة النبوية لابن هشام، ج٢. فتح خيبر.

وخلاصة القول في أمر علاقة الرسول (ﷺ) باليهود:

- تعامل معهم الرسول بكل أمانة وعهد، وتشهد على ذلك وثيقته الموقعة معهم، والتي فيها من العهود والأمانات الكثير ومن أهم بنودها: أنهم مع المؤمنين أمة واحدة، ولكل فئة دينها، وحقها في إقامة شعائرها، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وبينهم النصح والإرشاد، والنصر للمظلوم، واليهود متفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وبينهم النصر على كل من يداهم يثرب، وعدم حماية الظالم والآثم من الجانبين [1].
- مادامت الأمور بهذه الوضوح، والبنود مدونة، والصحف شاهدة، فلماذا غدرَ اليهود بالمسلمين؟ ولماذا يهاجم الرسول الذي تصرف معهم بمنطق رئيس الدولة الذي يحمي دولته من تهديدات أقلية وافدة عليها، إن سائر أحداث الغزوات يسبقها: تآمر من اليهود ضد شخص الرسول، أو ضد أحد المسلمين أو المسلمات، أو تحالف مع الأعداء للهجوم على الرسول.
- لقد طبّق عليهم الرسول (ﷺ) حكم الله تعالى في القرآن الكريم، جزاء نكالاً على ما قدموا.

ولا نذهب بعيدًا، ويهود دولة إسرائيل لا يحترمون عهدًا، ولا يقيمون للمسلمين والعرب وزنًا، ويتعاملون بروح الأنفة، وسبحان الله، تتشابه أحداث التاريخ القديم مع أحداث التاريخ المعاصر، في سلوكيات اليهود: خسة وغدر ونذالة، وتآمر ضد المسلمين. لا نقول ذلك افتئاتًا، ولكن نقوله – وتذكره البشرية جمعاء – من خلال وثائق بروتوكلات حكماء صهيون التي عبرت عن مؤامرة كاملة للسيطرة على العالم وتدمير الدين وقيمه وعقائده، وهذا أمر يطول المجال لشرحه، وفي الأبحاث والكتب المنشورة شرقًا وغربًا ما يغني.

---

(١) انظر تفصيلاً: زاد المعاد، ج٢، ص ١٠٢، ١٠٣. وابن هشام، ج١، بنود معاهدة الرسول مع بني عوف.

خاتمة

بعد هذا البحث والتطواف لمفهوم الرحمة بالبشر ومظاهرها في سنة النبي(ﷺ)، نستطيع أن نصل إلى مجموعة من النتائج المهمة:

- إن التعريف اللغوي والاصطلاحي للرحمة البشر يشمل: العطف، والمودة، والصبر، والرأفة، وكل تعامل طيب يراعي هذه القيم.
- إن مفهوم الرحمة بالبشر عميق في الفكر الإنساني، منذ وجود الإنسان على الأرض، فالرحمة خلق من الأخلاق الفطرية التي يولد الإنسان بها، لأنه جزء من الدين الفطري الذي يخلق عليه الفرد، ولو تُرِك هكذا لتوصل إلى رب الوجود بفطرته السليمة.
- إن الفلاسفة الأخلاقيين تناولوا هذا المفهوم في فلسفاتهم بشكل معمق، ولكنه خضع لرؤاهم الشخصية، ومعايير مجتمعاتهم، فلم يكن هناك تصور شامل حول الرحمة بالبشر، بقدر ما كانت نظرات غير مكتملة ضمن ثنايا الفلسفة الأخلاقية.
- ضل بعض الفلاسفة في منظورهم للرحمة، فقدّموا القوة والسيادة والسيطرة (أخلاق السادة كما يدّعون)، على التراحم والعطف (أخلاق العبيد كما يرون)، وتطرف بعضهم لينكر الجانب القيمي في تكوين الإنسان لصالح نظريات: المنفعة والفردية والميكافيللية.
- إن الأديان السماوية (النصرانية واليهودية) قدمت مفاهيم عميقة عن الرحمة البشرية، ولكن قيم النصرانية انزوت بفعل انتشار العلمانية في

المجتمعات الغربية المسيحية، والتحريف الذي نال الديانة اليهودية، وأن اليهود نشروا أينما حلّوا أخلاق المسكنة والضعف مختلطة بخسة وربا وغدر، وهم المنبوذون في المجتمعات التي أقاموا فيها.

- إن الإنسان توصل – بعد طول عناء – لكثير من مفاهيم الرحمة بالبشر وقنن ممارساتها في السلم والحرب كما هو واضح في القوانين والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وهذا ما نراه في الإسلام، وصدق أحد المفكرين المسلمين حين قال: آتوني بأي معروف في القوانين الدولية وأنا آتيكم بمثيلها في الإسلام. وعندما يذكر لفظة"المعروف"فالمقصود هو القيم الإنسانية الطيبة، ولا نقصد المساعي الخبيثة التي اجتهدت فيها فئات من البشر، مثل: حقوق الشواذ جنسيًا، وحق الإجهاض الآمن، وحق المراهقين والمراهقات في الانفصال الأسري عن ذويهم، وحقوق النسب للأم إذا كان المولود غير شرعي... إلخ، فهذه قضايا تزيد الإنسان ضلالاً على ضلال.

- إن القرآن الكريم قدّم منظورًا شاملاً عن الرحمة بالبشر في العديد من الآيات القرآنية، كما اشتمل الخطاب القرآني الموجه إلى النبي على أوامر بالتراحم البشري في صور عدة مثل: الصبر، الرأفة، اللين...، فالله تعالى أدّب رسوله الكريم فأحسن تأديبه.

- جاء خلق الرحمة الذي تحلى به الرسول (ﷺ) نابعًا من القرآن الكريم، ومن وحي الله تعالى.

- إن ذروة الرحمة بالبشر – في المنظور الإسلامي – اهتداء البشرية للإسلام، والالتزام بتعاليمه السمحة.

- إن الرسول (ﷺ) قدّم رؤية متكاملة للرحمة بالبشر: مفهومًا وخلقًا وسلوكًا، وإنها رؤية عظيمة شديد التكامل، تتفهم حاجات الإنسان النفسية والفطرية، وتتعامل بحكمة بالغة مع نفس الإنسان التي تجمع المتناقضات في جوانبها، وهذا ما شهد به الأعداء قبل الصحابة الكرام وكل مادوّنه المؤرخون في روايات صحيحة السند، عظيمة المتن.

- إن الشريعة الإسلامية استندت إلى مفهوم الرحمة البشرية في أعظم صورها لأنها انطلقت من القرآن الكريم، وسنّة النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم)، فجاءت مختلف الأحكام الشرعية في شؤون القضاء والاجتماع والناس منطلقة من هذا المبدأ السامي.

- إن المجتمع المسلم مجتمع شديد التراحم، وأن الرحمة لا حدود لها، تشمل الصغير والكبير، المادي والمعنوي.

- من مظاهر الرحمة بالبشر:الرحمة بالوالدين، التراحم بالزواج والمصاهرة بذوي الأرحام، وبالمرأة، والجار والضيف واليتيم والطفل ومسامحة الناسي والمخطئ والمكره، وكظم الغيظ، والرفق في سائر التعاملات البشرية كلها.

- اتسم تعامل الرسول (ﷺ) مع أهل الكتاب والمشركين والكفار بالرحمة العالية، في الأحكام الشرعية وفي التعاملات الحياتية.

- كذلك اتسمت تعاليمه وتعاملاته في الحرب بالرحمة بالقتيل والجريح والأسير والسبي...، وبعبارة أخرى: فإن جيش المسلمين – عند التزامه بشريعة الإسلام في الجهاد – يقدّم أرحم نموذج في الحرب.

- إن الأزمة بين المجتمع الغربي والمجتمع المسلم تعود إلى إرث قديم منذ ما قبل الحروب الصليبية، منذ فتح بيت المقدس، وتقليص مساحة الدولة البيزنطية على يد المسلمين الفاتحين، وتعمق أكثر بسبب الحروب الصليبية والمذابح التي حدثت في القدس وغيرها، وفترة الحروب التي استمرت ما يقرب من مئتي سنة، وزادت الأزمة في العصر الحديث بسبب سقوط معظم البلدان الإسلامية تحت الاحتلال الأوروبي، وما صاحبه من نهب منظم للثروات، وتغييب الهوية الإسلامية.
- لم تنته الأزمة مع خروج جيوش الاحتلال الأوروبي من العالم الإسلامي، بل استمرت بأشكال وأقنعة مختلفة: اقتصادية، سياسية، إعلامية، وعسكرية.

وأخيرًا: إن العقلاء والحكماء والعلماء ومعهم السياسيون، من مختلف الديانات والدول والشعوب، يقع عليهم العبء الأكبر في محاولة ردم الهوة المعمقة بين الأديان والشعوب، وقد يرى البعض استحالة ذلك، إلا أنه من الممكن التحاور المبني على حقائق علمية، وأدلة عقلية، ومبادئ إنسانية، ورغبة مشتركة في السلام والتعايش بين الناس.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر: (للأحاديث الشريفة وأحداث السيرة العطرة)

- القرآن الكريم، كلام رب العالمين.
- الأدب المفرد، البخاري، منشورات: دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
- تهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري (مسند عبد الله بن عباس ﷺ)، قرأه وخرّج أحاديثه: محمود مُحَمَّد شاكر، السفر الأول، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م
- سنن أبي داود، أبو داود ابن الأشعث الأزدي، دار الجيل، بيروت، دت.
- سنن النسائي، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي. سلسلة تراث الإسلام، مؤسسة علوم القرآن (دمشق – بيروت)، دار القبلة للثقافة الإسلامية (جدة).
- زاد المعاد، ابن القيم، دار الريان للتراث، القاهرة، د ت.
- شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، الإمام ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م
- صحيح مسلم، تصحيح و ضبط: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م

- صحيح البخاري (المسند من أحاديث رسول الله ﷺ وأيامه)، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وترقيم وتصحيح: محب الدين الخطيب، مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، دون تاريخ (ذكر أن الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٨٠م عن المطبعة السلفية)
- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، نشر موقع الوراق الإلكتروني.

ثانيًا: المراجع:

- أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، د. عبد اللطيف عامر، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة – بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- أحكام رسول الله ﷺ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن فرج القرطبي، نشر: دار كنوز للإعلام، القاهرة،١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الدار العلمية، بيروت، د ت،
- الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق – بيروت، ط١، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٦م
- أركان حقوق الإنسان (بحث مقارن في الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة)، د. صبحي المحمصاني، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.
- أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
- أسرى الحرب في القانون الدولي العام والشريعة الإسلامية، عبد الواحد مُحَمَّد الفار، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٥م.

- الإسلام والعالم المعاصر (بحث تاريخي مقارن)، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م
- الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت،
- أصول الفقه، مُحَمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربي ن القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ،
- أصول الفقه، مُحَمَّد الخضري، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م
- أمراض المجتمع: الأسباب، الأصناف، التفسير، الوقاية والعلاج، د. خليل وديع شكّور، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م
- بدايات الفلسفة الأخلاقية: الأخلاق في التراث البدائي والشرقي واليوناني، د. مُحَمَّد عبد الرحمن مرحبا، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، دت.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد مُحَمَّد مرتضى الزبيدي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م
- تعديل السلوك الإنساني، جمال الخطيب، ط٣، ١٩٩٤، على نفقة المؤلف، دون ناشر.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، مصر، د. ت.
- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ 2000 - م
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م.
- الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م
- حقوق الإنسان في العالم المعاصر، د. سعاد مُحَمَّد الصباح، دار سعاد الصباح للنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٦م
- خصائص مدرسة النبوة، د. كمال مُحَمَّد عيسى، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م
- دراسات في النفس الإنسانية، مُحَمَّد قطب، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط٦، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م
- دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط٣، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- الرحيق المختوم، بحث في سيرة سيد المرسلين، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، دون طبعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
- الرسول (ﷺ)، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، د. يعقوب عبد الوهاب الباحسين، نشر: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، بغداد، العراق، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- رواد الفكر الاشتراكي (١٧٨٩ – ١٨٥٠)، البروفيسور: ج.د.هـ. كول. ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م

- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مُحَمَّد فريد وجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م
- الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي، د. فؤاد حيدر، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠
- الصحاح في اللغة والعلوم، الجوهري، إعداد: نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ١٩٧٤م.
- صفوة التفاسير، مُحَمَّد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م
- العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، د. مُحَمَّد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م
- عبقرية مُحَمَّد (ﷺ)، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م
- العلاقات الاجتماعية بين الإسلام وغير المسلمين في الشريعة الإسلامية واليهودية والمسيحية والقانون، بدران أبو العينين بدران، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.
- العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، د:يحيي وزيري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٠٤، ٢٠٠٤م
- فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د.سليم حسن،سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠،
- فصول في الفلسفة ومذاهبها، الفيلسوف جود، ترجمة: د. عطية محمود هنا، د. ماهر كامل، سلسلة أمهات الكتب، منشورات مكتبة الأسرة (القراءة للجميع)، مصر، ٢٠٠٣م

- فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد للبخاري، تأليف: فضل الله الجيلاني، نشر وتوزيع: المكتبة الإسلامية، حمص، سورية، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م
- فقه السنة، سيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م
- فقه السيرة، مُحَمَّد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
- فقه النساء في الزواج والعشرة والنشوز والطلاق، ابن تيمية، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م
- الفكر الشرقي القديم، جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م، ص١٩٤
- فلاسفة من الشرق والغرب، مصطفى غالب، منشورات حمد، بيروت، ط١، ١٩٦٨،
- الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، دون تاريخ
- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م
- قبسات من الرسول، مُحَمَّد قطب، دار الشروق ن ط٩، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م
- قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، وِلْ ديورانت، ترجمة: د. فتح الله مُحَمَّد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م
- قضايا الشيخوخة، بحث ضمن كتاب: التقدم في السن، دراسة اجتماعية نفسية (مجموعة باحثين)، منشورات دار القلم، الكويت، ١٤٠٤هـ

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة،١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م
- كيف تنجح في معاملة الآخرين، د. مُحَمَّد علي قرني، المركز العربي للنشر والتوزيع،(إسكندرية – القاهرة)، د. ت
- لسان العرب، ابن منظور، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، ودار صادر، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
- المبسوط، أبو بكر السرخسي، دار المعرفة، بيروت.
- المحلى، ابن حزم، دار الاتحاد العربي، القاهرة، ١٩٦٨م
- مُحَمَّد في المدينة، مونتجومري وات، ترجمة: شعبات بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ت
- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، نشر: موقع الوراق الإلكتروني.
- مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى مُحَمَّد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤١٣هـ
- مدخل إلى الفكر الفلسفي، جوزيف بوخينسكي، ترجمة وتعليق: د. محمود حمدي زقزوق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م
- مدخل إلى علم أصول الفقه، مُحَمَّد معروف الدواليبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥ م
- مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين، آفاق جديدة للفكر الإنساني، تحرير: أوليفر ليمان، ترجمة: مصطفى محمود مُحَمَّد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٣٠١)، ٢٠٠٤م.

- المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: د. عبد الحليم محمود أبو بكر ذكري، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م.
- معالم التنزيل، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: حققه وخرج أحاديثه مُحَمَّد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، طبعة ٣، ١٩٨٥.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- مكايد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني، دار القلم، بيروت – دمشق، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م
- موسوعة حقوق الإنسان، إعداد: مُحَمَّد وفيق أبواتله، مراجعة: د. جمال العطيفي، نشر: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، القاهرة، ١٩٧٠م
- موسوعة علم النفس، رولان دورون، فرانسواز بارو، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م
- الموسوعة في سماحة الإسلام، مُحَمَّد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- هوامش على دفتر التنوير، د. جابر عصفور، دار سعاد الصباح للنشر (الكويت – القاهرة)، ١٩٩٣

- نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام، ضو مفتاح غمق، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، بنغازي، ليبيا، ط١، د ت.

ثالثًا: الدرويات والمجلات والصحف:

- الإسلام والقانون الدولي: صراع بين رؤيتي المصالح والقيم في العلاقات بين الأمم، فرد هاليداي، بحث منشور في مجلة الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد، بيروت، العدد ٤، السنة ١٤، ربيع ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- أحكام الأسري في الفقه الإسلامي، د. مُحَمَّد عثمان شبير، بحث منشورة بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٥٦، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- تنمية الصحة النفسية في الإسلام، د. كمال إبراهيم مرسي، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ١٤، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م
- جريدة الرأي العام الكويتية، عدد ١٢ أغسطس، ١٩٩٤.
- حكم التشهير بالمسلم في الفقه الإسلامي، د. عبد الرحمن صالح الغفيلي، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٤٦، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م
- خطر العالم الجديد: الانكماش السكاني، ترجمة: إيمان عطية (عن تقرير في جريدة Financial Times) نشرته جريدة القبس الكويتية، عدد ٢٢ /٢ / ٢٠٠٧ م.
- دراسة عن حياة مردوخ امبراطور الإعلام الدولي: المقروء والمسموع والمرئي، أعداد: مارون بدران جريدة القبس الكويتية، ٢٠٠٧/٢/٧،
-"على أي أساس نتعايش؟"ورقة من إعداد مجموعة من المثقفين السعوديين، في ردهم على الرسالة الأمريكية التي تحمل عنوان: على أي أساس نقاتل؟، مجلة

الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد، بيروت، العدد ٤، السنة ١٤، ربيع ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

- العمل التطوعي، أوراد يحيي، مجلة الهلال الأحمر الكويتي، يونيو ٢٠٠١

- معنى فطرية الإسلام عن الإمام ابن تيمية، د. عبد الحليم أحمدي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد ٢٠، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م

- المجتمع المدني بين النظرية والتطبيق، د. الحبيب الجنحاني، دراسة منشورة بمجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد ٢٧، مارس ١٩٩٩م

- مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، د. صديق عبد العظيم أبو الحسن بحث بمنشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، العدد ٣١، السنة ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م

- منهج فقه الموازنات في الشرع الإسلامي (دراسة أصولية)، د. حسن سالم الدوسي، بحث في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت،العدد (٤٦) ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

- موقع جامعة مينسوتا الخاص بحقوق الإنسان.

ttp://www1.umn.edu/humanrts/arab

المؤلف

أ. د. مصطفى عطية جمعة
أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي.
وباحث في الإسلاميات والحضارة، وقاص ورو ائي ومسرحي.

أعمال منشورة :

أولا : الدراسات الأدبية والنقدية :

١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١
٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦
٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة،ط٢، ٢٠٢٢.
٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢، وصدرت ط١، بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.
٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.
٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م
٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٢.

٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٢.

١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م، الصفحات (٤٥-١١٢).

١٢) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٣) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٤) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٥) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١٦) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٢.

١٧) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

١٨) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

١٩) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م

٢٠) منهج الرسول (ﷺ) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢١) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٢) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٣) صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٤) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٥) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٦) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

٢٧) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٢٨) نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٢٩) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصةبالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٣٠) طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣١) أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٢) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٣٣) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣٤) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.

٣٥) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٦) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٧) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢، ط٢، وصدرت ط١، بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٣٨) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٣٩) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

٤٠) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٢.

الفهرس

الإهداء ٥

مقدمة ٧

الفصل الأول

الرحمة بالبشر.. في الفكر الإنساني والإسلامي

المبحث الأول: الرحمة بالبشر.. المفهوم والخُلق والقيمة في الفكر الإنساني ١٣

المبحث الثاني: الرحمة بالبشر.. في الخطاب القرآني والتشريع الإسلامي ٣٦

الفصل الثاني

جوانب الرحمة بالبشر.. في سنة النبي مُحَمَّد (ﷺ)

المبحث الأول: فلسفة الرحمة بالبشر.. في سنة النبي مُحَمَّد (ﷺ) ٦٨

المبحث الثاني: الرحمة بأفراد المجتمع.. في سنّة النبي مُحَمَّد ﷺ).....٨٨

الفصل الثالث

مظاهر رحمة الرسول(ﷺ).. مع غير المسلمين وفي الحرب

المبحث الأول: مظاهر رحمة الرسول(ﷺ).. مع غير المسلمين ١٣٥

المبحث الثاني: مظاهر الرحمة بالبشر في الجهاد.....١٤٥

المصادر والمراجع.....١٧٤

المؤلف ١٨٤

تتمحور القضية الأساسية التي يتناولها هذا الكتاب في سؤال مفاده: ماذا فعلنا نحو نبينا "صلى الله عليه وسلم" ؟ هل قمنا بواجبنا على الوجه الأكمل نحو التعريف به، والإعلام عن خلقه العظيم، لشعوب العالم؟

إن هذا الواجب ليس ترفًا فكريًا، بل هو أولوية لا مناص منها، وإلا سنظل أسرى حدودنا، نتكلم ونسمع أنفسنا، وهم يصرخون ويسمعون أنفسهم، ويغيب الحوار الهادئ الرصين، والدعوة السمحة التي هي أساس إسلامنا، وعنوان هدي نبينا "صلى الله عليه وسلم" فما أروع جوانب العظمة في شخصية المبعوث رحمة للعالمين؛ الذي أذهل مؤرخي البشرية شرقا وغربا؛ بروعة أخلاقه وكمال شخصيته، وعظمة الرسالة التي حملها.

وقد حمل هذا الكتاب عنوان "فلسفة الرحمة في شخصية النبي "صلى الله عليه وسلم" مستهدفا تركيز الضوء على جانب من جوانب خلق الرسول ورحمته بالبشر، وعرض أبرز تنظيراته وسلوكياته وتوجيهاته، وتعاليمه لأصحابه، التي تزخر بها آلاف الصفحات في كتب صحاح السنة والسيرة العطرة؛ أملا في تقديم الحقائق الناصعة للمسلمين أولاً، ولكل البشر ثانية.

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»